



تطوّر الخطابة في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي

The Development of Oratory in the Light of the Political Rivalry in the Umayyad Era

إعداد

محمد أحمد ضامن الخوالدة

إشراف

د. غسان إسماعيل عبد الخالق

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة فيلادلفيا

الفصل الدراسي الثاني 2015/2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

..... ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿﴾

صدق الله العظيم

المجادلة: ١١

تفويض

أنا الطالب **محمد أحمد ضامن الخوالدة**، أفوض جامعة فيلادلفيا بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

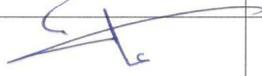
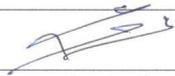
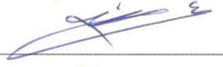
 التوقيع:

التاريخ: 1 / 6 / 2016

قرار لجنة المناقشة
تطوّر الخطابية في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي

إعداد الطالب
محمد أحمد ضاعن الخوالدة

إشراف الدكتور
غسان إسماعيل عبد الخالق
نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: 2016/ 6 / 11

التوقيع		أعضاء لجنة المناقشة
	مشرفاً ورئيساً	د. غسان إسماعيل عبد الخالق أستاذ مشارك الأدب والنقد القديم، جامعة فيلادلفيا
	عضواً	أ.د. محمد حسين عبيدالله أستاذ الأدب والنقد، جامعة فيلادلفيا
	عضواً	د. عمر الكفاوين أستاذ الأدب والنقد، جامعة فيلادلفيا
	عضواً خارجياً	د. سلامة الغريب أستاذ الأدب والنقد، جامعة الطفيلة التقنية

الإهداء

... إلى القلب الحنون ... إلى الروح الصبورة ... إلى التي رأني قلبها قبل عينيها
وحضنتني أحشاؤها قبل يديها.. إلى الشجرة التي لا تذبل.. إلى الظل الذي آوي إليه
في كل حين ... إلى ..

— والدي الحبيبة أطل الله في عمرها —

... إلى من يرقد على سرير الشفاء ... متمنياً له عاجل الشفاء

— والدي الحبيب أطل الله في عمره —

... إلى ... رمز سعادتي في حياتي ...

— زوجتي وأبنائي —

... إلى كافة الأهل والأصدقاء ... والأئمة والوعاظ والخطباء ...

وأخص بالذكر زميل العمل وصاحب الفضل السيد علاء عويدي العبادي.

— أهدي هذا العمل المتواضع —

الباحث
محمد أبو ضاعن الخوالدة

شكر وتقدير



الحمد لله، ثمّ الحمد لله، ثمّ الحمد لله، أحمدهُ كما ينبغي لجلاله وعظمة قدرته وسلطانه، أحمده حمد عبد معترفاً بالعجز والتقصير وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسرّ من عسير الذي ألهمني الطموح والصبر وسدّد خطاي، بأن منّ عليّ بإتمام هذه الرسالة ومنّ عليّ بنعم لا أحصيها، والصلاة والسلام على من لا نبي - بعده معلم الناس الخير - سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعده،،

إيماناً مني بأنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله - ﷻ - أتوجه بعميق الشكر وخالص التقدير لأستاذي الفاضل الدكتور غسان إسماعيل عبد الخالق؛ لأنه تفضل بالإشراف على هذه الرسالة، ولم يبخل علي بعلمه ووقته وقراءته المتأنية لرسالتي وتوجيهاته التي كان لها كبير الأثر في إخراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور / محمد عبيد الله عضو لجنة المناقشة الكريمة الذي تكرمّ بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة جزاه الله خير الجزاء.

وأنتقدم بفائق الاحترام والتقدير للدكتور / عمر الكفاوين عضو لجنة المناقشة الكريمة الذي تكرم بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة نفع الله به.

وأنتقدم بفائق الاحترام والتقدير للدكتور / سلامة الغريب عضو لجنة المناقشة الكريمة الذي تكرم بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة نفع الله به.

وأخيراً، أوجّه شكري وتقديري إلى كل من ساندني ولو بكلمة تشجيع لإتمام هذه الدراسة.

والله ولي التوفيق

الباحث

محمد أبو ضاعن الخوالدة

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية.....	ب
تقويض.....	ج
قرار لجنة المناقشه.....	د
الإهداء	هـ
الشكر والتقدير	و
فهرس المحتويات.....	ز
الملخص	ط
مقدمة	1
مشكلة الدراسة	2
أهداف الدراسة	2
أهمية الدراسة	2
منهجية الدراسة.....	2
حدود الدراسة	3
الدراسات السابقة.....	3
تمهيد: الخطابة ومراحل تطورها في الجاهلية و صدر الإسلام	4-16
توطئة	5
* الخطابة لغة واصطلاحاً.....	5
* تطور الخطابة في العصرين الجاهلي و صدر الإسلام	12
الفصل الأول: ازدهار الخطابة في العصر الأموي	17-42
* توطئة	18
* العصر الأموي: امتداده وطبيعته ونبذة تاريخية عنه.....	18
* تطور الحياة الفكرية والعلمية	19
* الحوادث السياسية والاجتماعية	23
* الفرق الدينية والكلامية وتأثيرها على حركة الفتوحات الإسلامية.....	28
* أنواع الخطابة في العصر الأموي	32
* الخطابة السياسية والحربية	32
* الخطابة الدينية	38
* الخطابة الاجتماعية.....	40

58-43	الفصل الثاني: الأساليب الخطابية في العصر الأموي
44	* توطئة
44	* الأساليب الخطابية في العصر الأموي.....
45	* الأساليب الخطابية لدى خلفاء العصر الأموي
50	* الأساليب الخطابية لدى ولاة العصر الأموي
55	* الأساليب الخطابية لدى الخوارج والشيعة
71-59	الفصل الثالث: التناسق مفهومه وصوره في الخطابة الأموية
60	* توطئة
60	* التناسق لغة واصطلاحاً
63	* التناسق الديني في الخطابة الأموية
68	* التناسق الأدبي والتاريخي في الخطابة الأموية
85-72	الفصل الرابع: السمات البديعية في الخطابة الأموية
73	* توطئة
74	* البديع.....
74	* السجع.....
77	* التضاد
81	* التكرار.....
83	* التورية
84	* الازدواج
93-86	الفصل الخامس: أدوات الصورة الفنية في الخطابة الأموية.....
87	* توطئة
87	* التشبيه
89	* الاستعارة
91	* المجاز
93	* الكنايات بأنواعها
94	خاتمة
95	توصيات
96	قائمة المصادر والمراجع
102	الملخص باللغة الإنجليزية.....

الملخص

تطور الخطابة في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي

إعداد الطالب

محمد أحمد ضاعن الخوادة

إشراف الدكتور

غسان إسماعيل عبد الخالق

تناولت الدراسة مراحل تطور الخطابة في العصر الأموي مبيّنة أثر التنافس السياسي في إجلاء مظاهر ذلك التطور.

وقد جاءت الدراسة موزّعة على خمسة فصول مسبقة بفصل تمهيدي بيّن تعريف الخطابة ومراحل تطورها في الجاهلية و صدر الإسلام وماهيّة الخطابة لغة واصطلاحاً ودوراً، وأشار التمهيدي - كذلك بإيجاز إلى شكل الخطابة ومعمارها في تلك العصور.

أمّا الفصل الأول تناولت فيه بعض ملامح العصر الأموي تاريخياً من خلال تطوّر الحياة الفكرية والعلمية وقوفاً عند الأحداث السياسية والاجتماعية التي بدورها أنتجت الفرق الدينية والكلامية المتصارعة؛ حيث تمخّض عن ذلك ظهور أنواع متعددة للخطابة تم الوقوف عندها بشيء من التحليل من خلال عرض نماذج للخطابة السياسية والحربية، وكذلك الدينية والاجتماعية.

وكان الفصل الثاني تحليلياً لأساليب الخطباء في العصر الأموي من خلفاء إلى ولاية وصولاً إلى الخطب المذهبية وأساليبها كخطب الخوارج والشيعية. وكان الفصل الثالث مخصصاً للإمام بظاهرة التنافس بأشكاله التاريخية والدينية والأدبية؛ ذلك أن المدقق في التنافس يستطيع من خلاله أن يحدّد التوجه الديني والسياسي لدى خطباء ذلك العصر.

وأمّا الفصلان الرابع والخامس، فقد كانا يمثلان الجانب التطبيقي والعملي؛ حيث بيّنت فيهما كيف كان خطباء العصر الأموي يوظفون المهارات اللغوية البديعية والبلاغية لخدمة الموضوع وإيصال الرسالة إلى المتلقي بطريقة محكمة متقنة وظفوا من خلالها اللغة بأساليبهم البديعية، فكان المعيار الرئيس في هذا الفصل "النص أولاً وقبل كل شيء"، فسعت الرسالة إلى بيان كثير من السمات البديعية في الخطابة الأموية كالسجع والتضاد والتكرار والتورية والازدواج، فضلاً عن أدوات الصورة الفنية كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكنائيات بأنواعها، كما أثبتتُ الفصول الخمسة بخاتمة تلخّص أهم النتائج والتوصيات.

ولعل ما يميز هذه الرسالة عن غيرها من الدراسات، اقترابها الشديد من النص محاولة فكاً مغاليقه لتجليته للقارئ، كي يسهل عليه إصدار الحكم على النص بالجودة أو الرداءة، وقد اعتمدت في إبراز النصوص على نقلها من مظانها الرئيسية كي لا تكون بعض نصوص الخطب قد تعرضت لشيء من الحذف أو التصحيف أو الزيادة أو التحريف، ومع أن مادة الدراسة أموية قديمة إلا أنها تشرّبت ببعض آراء المحدثين، وأخذت بكثير من مناهجهم النقدية في التحليل.

الكلمات المفتاحية: تطور الخطابة، التنافس السياسي، العصر الأموي.

مقدمة

تعدُّ الخطابة ضرباً من ضروب النثر في الأدب العربي وعمادها اللسان والارتجال، فهي من الفنون التي عُرِفَت عند العرب منذ العصر الجاهلي، وهي من الوسائل البيانية الضرورية للتعبير عما يتعلق ببيئتهم وحياتهم العامة. وبقدوم الإسلام تبوّأت الخطابة منزلة عالية، وبخاصة في نشر الدعوة الإسلامية والوعظ والإرشاد والتعليم.

شهد العصر الأموي تطوراً واضحاً وملموساً في فن الخطابة، فقد كان الفرقاء يعتمدون عليها اعتماداً كلياً للتعبير عن آرائهم السياسية، وإقناع واستمالة المتلقي في جميع مواقفهم الحياتية ومناسباتهم الدينية والدنيوية، ولقد كانت نشأة الأحزاب السياسية وتعدد الفرق الإسلامية من المؤثرات في تطور الخطب العربية حينذاك، فالأحداث السياسية في العصر الأموي كان لها دور كبير في التغييرات الواسعة في حياة الأمة العربية والإسلامية؛ حيث غلب الاعتناء بالشؤون السياسية على الاعتناء بالشؤون الدينية مما أسهم في ازدهار الخطب السياسية، وتزايد أعداد الخطباء السياسيين الذين ملكوا أناة الفصاحة والبيان، مثل زياد بن أبيه والحسن البصري والحجاج. وتميز هذا العصر عن غيره من العصور السابقين (الجاهلي و صدر الإسلام) بقيم خطابية وفكرية وجمالية خاصة به؛ وذلك من حيث مكونات الخطبة النبوية البديعية أي البنائية البديعية والأسلوبية والفنية والحجاجية.

لقد جاءت هذه الدراسة استكمالاً لما سبقها من دراسات تناولت موضوع الخطابة، محاولة رسم صورة كاملة عن الملامح الرئيسة للخطابة ومضامينها الداخلية سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية. فقد نالت الخطابة العربية في العصر الأموي حظاً وافراً من الرقي والازدهار، وأصبحت غاية للخلفاء والقادة، ومنطلقاً للسادة والمصلحين في إيصال الرسالة الحقة.

وتركز هذه الدراسة على التتبع التاريخي والموضوعي والتحليل النصي للخطابة العربية في ذلك العصر، كما ترصد الظواهر البارزة على صعيد الأسلوب والمعمار الفني والصورة الفنية، وتتابع تطورات الخطابة الدينية والسياسية والحربية، نظراً للتداخل الشديد بينها.

مشكلة الدراسة

تمثلت مشكلة الدراسة في الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما أنواع ومجالات الخطابة في العصر الأموي؟
- ما مدى تطور الخطابة في العصر الأموي مقارنة بالعصرين الجاهلي و صدر الإسلام؟
- ما مدى تأثير ظهور الفرق السياسية المتعددة في العصر الأموي على صعيد تطور الخطابة؟

- ما الخصائص الفنية التي امتازت بها الخطابة لدى الفرق الإسلامية في العصر الأموي؟

أهداف الدراسة

- سعت الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف، وهي:
- تحديد أنواع الخطابة في العصر الأموي ومجالاتها.
- بيان مدى تطوّر الخطابة في العصر الأموي مقارنة بالعصرين: الجاهلي و صدر الإسلام.
- بيان تأثير الفرق السياسية المتعددة في العصر الأموي على صعيد تطور الخطابة.
- بيان خصائص الخطابة الفنية لدى الفرق الإسلامية في العصر الأموي.

أهمية الدراسة

تتمثل أهمية الدراسة فيما يلي:

- أولاً: تسليط الضوء على أهمية العصر الأموي رغم قصر مدته، ومدى تأثيره في الأدب العربي بوجه عام والخطابة بوجه خاص؛ وذلك من خلال إبراز القيم والأساليب الجمالية التي استنقتها من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وبيان تميّز الخطباء الذين أظلم هذا العصر.
- ثانياً: إبراز أثر وفاعلية الخطابة عامة والخطابة السياسية خاصة، وبيان أساليبها ومضامينها، في ظل وجود فرق سياسية متعددة.

منهجية الدراسة

- اعتمدت هذه الدراسة المنهج التاريخي على صعيد إبراز ملامح العصر الأموي، والبناء الموضوعي على صعيد تحديد وإبراز المضامين الخطابية، والمنهج الشكلي على صعيد تحديد وإبراز سمات البناء الفني من المحسّنات البديعية وأدوات الصورة الفنية.

حدود الدراسة

تتناول الدراسة تطور الخطابة في العصر الأموي، وتحليلها موضوعياً وفنياً. ويعود السبب في اختيار العصر الأموي إلى ما طرأ على الخطابة من تطور وازدهار وتنوع، واتسامها بجزالة اللفظ ومثانة الأسلوب وقوة التأثير، وحسن الاقتباس من القرآن الكريم والسير على نهجه في الإقناع بالحجة والبرهان والتأثير في الوجدان، ومن الأحاديث النبوية الشريفة وتمثل بلاغتها وإيجازها.

الدراسات السابقة

يمكن القول: هناك القليل من الدراسات التي ركزت على بنى وأساليب الخطابة الأموية، فكان التركيز غالباً على النصوص الخطابية وجزالة ألفاظها. ونذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر:

1- (الخطابة العربية في عصرها الذهبي)، لإحسان النص في عام 1963، الحلبي، وهي من الدراسات التي وقفت أمام النص الخطابي فقط، دون الدخول إلى مضمونه، معتمدة على المنهج التاريخي في البحث، أما دراستي فإنها ستتناول نصوص الخطابة الأموية وتستخلص المضامين والسمات الفنية فيها.

2- (فن الخطابة)، لأحمد الحوفي، في عام 1972، ط4. وتأتي امتداداً لدراسة الدكتور إحسان النص، وهي عبارة عن دراسة عامة للخطابة، وتعرض من خلالها لمفهوم الخطابة وأسسها وموضوعاتها، رابطاً بينها وبين الأسطورة والتاريخ. وقد درست الظواهر الفنية للخطابة في العصر الأموي، ولم تتوسع في بيان قوة الأسلوب ومدى تأثيره في المتلقي كما سيظهر في هذه الدراسة.

3- (الخطابة العربية: أصولها، تاريخها، في أزهى عصورها عند العرب)، لمحمد أبو زهرة في عام 1980، وقد جمع فيها الخصائص الخطابية العربية، وتحدث عن أصول الخطابة، كما عرض نماذج من نصوص الخطب عند العرب، امتدت من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، مروراً بالخطابة في العصر الراشدي، ولكن بإيجاز شديد، فلم تركز الدراسة على الأسلوب بقدر تركيزها على التاريخ، أما دراستي فإنها ستتمحور حول العصر الأموي بنماذج الخطابية المختلفة مضموناً وشكلاً وكمّاً ونوعاً.

4- (النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دراسة تحليلية)، لمي يوسف خليف، (1996)، وقد بحثت في بعض الظواهر على حساب الأسلوب؛ مما جعل البحث يتجاوز عن العديد من الظواهر الفنية البارزة، أما دراستي فإنها ستبرز ألواناً جديدة في الصياغة والأسلوب والمضمون التي تميّزت بها عن المعمار الفني للخطابة في فترة صدر الإسلام.

وتمتاز دراستي عن الدراسات السابقة، بتركيزها على النصّ باعتباره خلاصة فكر الخطيب الذي من خلاله نتعرف على أدواته اللغوية وملكاته الأدبية واتجاهاته الدينية والسياسية دراسة وتحليلاً.

تمهيد



الخطابة ومراحل تطورها في الجاهلية وصدرا الإسلام

- توطئة
- الخطابة لغة واصطلاحاً
- تطور الخطابة في العصرين الجاهلي وصدرا الإسلام

توطئة

يُعد فن الخطابة نوعاً من أنواع النثر الفني الذي يعتمد على مشافهة الجمهور، ويهدف إلى الإقناع والاستمالة والتأثير في نفوس السامعين، وقد اتخذها الأنبياء والمصلحون أداة مهمة في نشر تعاليمهم، وشدّ أسماع الناس إليهم. وقد وجد العرب في الخطابة خيراً وسيلة للحث على القتال، وإثارة الحماس، واجتلاب النفع واثقاء الشر، ومقارعة الظلم، وحقن الدماء، لهذا اعتنوا بها عناية فائقة، فهي من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، وبها تفاخر العرب قديماً وحديثاً، وبها ألقى الخلفاء والأمراء والأئمة على منابرهم الخطب، وبها يتميز الكلام. كما نشطت الخطابة عند العرب في الجاهلية لارتباطها بواقعهم ومصيرهم، وأدت الحياة القاسية التي كانوا يعيشونها وبحثهم عن الماء والكأ إلى نشوب النزاعات بحكم بيئتهم المضطربة، فكانت الخطابة سلاحهم الذي يصطحبونه في حربهم وسلمهم؛ ففي الحرب تحضهم على إيقاظ الهمم، وفي السلم تدعوهم إلى المبادرة بالصلح⁽¹⁾.

وجاء الإسلام نوراً وهداية للبشرية، وتأثرت الخطابة به، كما أسهمت في انتشاره، بحيث أصبحت أداة حاسمة، استعان بها المسلمون في نشر مبادئ الإسلام وتعاليمه، كما كان للقرآن الكريم أثره البالغ على الخطابة؛ إذ بعث في نفوس الخطباء حساً جمالياً دفع بهم إلى مجازاة أسلوبه، فأخذوا يوشحون خطبهم بالآيات تمثلاً بها وإشارة، ووضعها بالمقام المناسب والملائم لها في الخطبة. وانطلاقاً مما سبق فإننا سنبحث الخطابة لغة واصطلاحاً ودوراً.

الخطابة لغة واصطلاحاً

تُعدُّ الخطابة من الأنواع الأدبية النثرية التي عُرفت لدى العرب منذ القدم، واشتهر بها عدد من الخطباء، حتى إنه ضرب بهم المثل بالخطابة والفصاحة والبيان وطلاقة اللسان، وعلى رأس هؤلاء "قس بن ساعدة الإيادي" -الذي كان أول من قال في الخطبة: (أمّا بعد)، وسار الآخرون على منواله، وهو أيضاً أول من اتكأ على العصا على المنبر، وهذا يدل على بلاغة وفصاحة الخطباء قديماً، و"أكثم بن صيفي" خطيب لا يقل عنه شأنًا بفصاحته وبلاغته وطلاقة لسانه.

(1) فياض، نقولا، (1930). الخطابة، ط(1)، دار الهلال، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، ص121.

ولأن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها، ظهرت الحاجة إلى إنشاء واقع أدبي جديد، فتحول الاهتمام من الشعر إلى النثر. وظلت الخطابة في درجة العناية نفسها خلال العصور التي تبعت العصر الإسلامي الأول، فاعتنى الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن جاء بعدهم بها. والخطابة لغة وردت في المعاجم العربية بدلالات مختلفة، ويشتق لفظ (الخطابة) من المادة اللغوية (خ ط ب) التي تدل على معانٍ كثيرة في المعاجم العربية، وسوف ندرج هنا بعض التعريفات اللغوية للخطابة:

– قيل "سبب الأمر، يقال: ما خَطَبُك؟ أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خَطَبٌ جليل، وخَطَبٌ يسير"، وهي من الخِطاب والمخاطبة، وتعني: مراجعة الكلام، والخطبة تأتي من الفعل خَطَبَ يَخْطُبُ، وخَطَبَ الخاطب على المنبر، واختطب خطابة، واسم الكلام الخطبة، وبذلك فهي "الكلام المنثور المسجوع وهو مثل الرسالة التي لها أول وآخر"⁽¹⁾.

– يقال "خاطبه أحسن الخِطاب، وهو المواجهة بالكلام"⁽²⁾.

– والخطابة: الكلام المنثور المُسجَع ونحوه، رجل خطيب: حَسَنَ الخُطبة⁽³⁾.

– والخطابة: كلام الخطيب؛ أي اسم لما يُخْطَب من الكلام، وقيل هي الكلام المنثور المُسجَع، والخطبة ما يتكلم به الخطيب على جماعة بمهمة دينية أو دنيوية⁽⁴⁾.

أما الخطابة في الاصطلاح فهي تعرف بأنها: علم البلاغة، وليس الغرض منها تعليم الكلام البليغ فحسب، لكن الغرض منها عرض الأفكار بأسلوب مقنع والإتيان بكلام فصل سواء كان المتحدث ذكراً أم أنثى، ودليل ذلك قول العرب "قطعت جهيزة قول كل خطيب"^(*)، أمثال ليلي الأخيلية في العصر الأموي، وقد عرّف الخطابة كثير من الفلاسفة واللغويين قديماً وحديثاً، ومنهم:

– أفلاطون: "فن القول، يجعل من يملكون ناصيته بارعين في (الكلام)، وما دام الكلام تعبيراً عن الفكر، فإنه يجعلهم أذكيا في شيء ما"⁽⁵⁾.

(1) ابن منظور، (1990). لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 361، مادة (خطب).

(2) الزمخشري، (د.ت). أساس البلاغة، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 112.

(3) الفيروز أبادي، الإمام مجد الدين، أبو طاهر، (د.ت). القاموس المحيط، ج 1، مطبعة بولاق، مصر، ص 65.

(4) البستاني، بطرس، (د.ت). محيط المحيط، مكتبة لبنان، مادة خطب.

* وقد قالت العرب: "قطعت جهيزة قول كل خطيب"، وكان على أثر صلح بين حيين؛ لأنها أتت بكلام فصل في مسألة خلافة بالقتل فأصبحت مثلاً يضرب لكل شخص يأتي بالكلام الفصل.

(5) أرسطو، طاليس، فن الخطابة، وكالة المطبوعات، الكويت، ص 14.

- الفارابي: "دليل العلم أذان الإقناع يقع فيها، وهي بذلك تعتمد الأسلوب العلمي"⁽¹⁾.
- المعجم الوسيط: "فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته، والخطيب الحسن الخطبة ومن يقوم بالخطابة في المسجد وغيره، ولذا هو القائم بعملية الخطابة؛ لأنه يقنع الناس بفكرة معينة"⁽²⁾.
- الحوفي: "فن الكلام الجيد المنتظم في الخطابة؛ وذلك لأنَّ الخطيب ينتقي الكلام بعناية في خطابه"⁽³⁾.

نرى من خلال التعريفات السابقة للخطابة، أنها تمثل حلقة وصل بين الخطيب والجمهور؛ فكلما كان الخطيب متمكناً، عالماً بما يقول، ممتكلاً لروعة الأسلوب في إيصال المعلومة والإقناع، ازدادت شعبيته، وازداد إقبال الناس على الاستماع لخطابته. والتعريفات التي وضعت للخطابة على أنها كلام منثور بعضه مسجَّع، وترتبط بفن البلاغة إن لم تكن هي البلاغة. وهي فن الإقناع والكلام الجيد، كما أنها تعد دليلاً على العلم، فهي جزء منه والعلم يسهم في إنجاحها، فهي تعلم الخطيب كيفية التكلم وإلقاء الخطبة، وطرح الفكرة، والتأثير بالمستمعين، إضافة إلى أنه على الخطيب أن يتعلم ويفهم ما يود إيصاله للجمهور، وهذا يساعده في أداء مهامه الخطابية، وعليه كذلك تعلم بعض العلوم التي تعمل على زيادة مهاراته الخطابية، وأن يتمتع بثقافة واسعة.

تشير هنا إلى أن للخطابة عناصر هي:

- الخطيب: وهو قائل الخطبة أو مُرسلها، ولا بد أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط ليتمكن من الخطابة، وليجد من يوجه الأسماع له، كحفظه للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكثرة المطالعة والقراءة، والإلمام بالتاريخ والسياسة وغيرها من العلوم الدينية والدنيوية الأخرى. ولا بد أن يمتلك الأسلوب والطريقة المناسبة في طرح القضية وإلقاء الخطبة على مسامع الناس، ليتمكن من إيصال المعلومة التي يود أن يتحقق من خلالها الهدف الرئيس من وراء الخطبة.

(1) الفارابي، أبي نصر محمد، (1986). إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، مصر، ص7.

(2) مجمع اللغة العربية، (2004). المعجم الوسيط، ط4، ص243.

(3) الحوفي، أحمد محمد، (1972). فن الخطابة، ط4، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الجّالة، القاهرة، ص5.

– الخطبة: لا بد للخطبة من أن يكون لها مقدمة وعرض وخاتمة، وتُعدُّ المقدمة من أهم أركان الخطبة؛ لما لها من تأثير كبير لشد انتباه السامعين إلى موضوع الخطبة. ولا بد من أن يبدأ الخطيب المقدمة بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي محمد ﷺ. وقد وصف النقاد القداماء الخطبة التي لا تبدأ بالحمد بـ"البتراء"⁽¹⁾. وبعد الانتهاء من مقدمة الخطبة يبدأ الخطيب بالجزء الرئيس منها وهو العَرَض، وفيه يتم عرض أفكار الخطيب للمستمعين أو المتلقين، ومحاولة إقناعهم بها، من خلال اللفظ المناسب لإيصال المعنى الذي يتواءم مع الجو العام للخطبة. ومن علامات نجاح عرض الخطيب لموضوع الخطبة وحدة الموضوع، وقيام الخطيب بجمع الأدلة المؤيدة له، سواء الأدلة القياسية المنطقية أو الأدلة التاريخية، وقيامه بتعميق الفكرة وتثبيتها في أفكار المستمعين، ولا بد للخطيب من أن يأتي بأدلة واضحة قريبة متصلة بما عرضه في موضوع الخطبة⁽²⁾. أما آخر أركان موضوع الخطبة فهو الخاتمة ولا بد لها من أن تصب في صلب موضوع الخطبة، وأن تكون امتداداً للخطبة، تعمل على تركيز معانيها، واستمالة الناس نحوها، وأن تحقق الهدف منها، وأن تكون قوية في تعبيرها وفي إقائها؛ لأنها آخر ما يطرق سمع الناس ويبقى في أذهانهم، وآخر صفات الخاتمة أن تكون قصيرة وحاسمه ومشوقة ومركزة وجامعة لفكرة موضوع الخطبة.

– المتلقي للخطبة أو المستقبل: وهم من يوجه إليهم موضوع الخطبة ومن يسعى الخطيب إلى إقناعهم بأفكاره ومضامين كلامه، وهنا نود الإشارة إلى أنه لا بد للخطيب من أن يكون على علم مسبق بالثقافة التي يمتلكها المستمعون، لتكون طريقة الخطبة مناسبة لعقولهم، فهناك المتلقي العامي، وهو الذي لم ينل حظاً وافراً من العلم والثقافة، ولا بد من أن تكون الخطبة الموجهة إليه بعيدة عن التعقيد. وهناك المتلقي المتقف، وهو أكثر ميلاً إلى الأدلة، والبراهين والأفكار والإقناع، ولكنه يتأثر بالعواطف. لذلك يجب على الخطيب أن يراعي البراهين والعواطف في خطبته. وهناك المتلقي العالم، وهو الذي يحضر المؤتمرات العلمية والأدبية، وهنا يجب على الخطيب أن يُحْكَم أدلته وبراهينه، ولا يستعمل أسلوب الخطاب المُتَّبَع من العوام⁽³⁾.

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (د.ت). البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج2، مكتبة الجاحظ، بيروت، لبنان، ص6.

(2) أبو زهرة، الإمام محمد، (1934). الخطابة أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ط1، ج1، مطبعة العلوم، القاهرة، مصر، ص25.

(3) الحوفي، أحمد محمد، مرجع سابق، ص44.

وللخطابة دور كبير عبر العصور في الحياة اليومية للشعوب والأمم، حيث نشأت منذ القدم، مع بداية نشوء المجتمعات، ولذلك لا يخلو تاريخ الأمم السابقة من فن الخطابة وآدابها، فالليونان كانوا يرون أنه لا جدوى من تعلم الفنون من دون الخطابة، ويرون أن الضرورة تُحتم تعلم الخطابة واستخدامها للتأثير على المستمعين وكسب الجدل، وقد نجح اليونانيون في الخطابة؛ لأنهم كانوا أساتذة العالم القديم، ولأنهم رواد النزعة العقلية في العالم أجمع. وكانت الخطابة في المجتمع اليوناني ظاهرة عامة، وهذا يعني أنه كان يوجد العديد من الخطباء لديهم. أما السفسطائيون^(*) فقد كانت لديهم مواهب في تعليم الخطابة⁽¹⁾.

عرف العرب فن الخطابة منذ القديم، وتوسلوا بها في أمنهم وحربهم، ورخائهم وجذبهم، ومنافراتهم ومفاخراتهم، وشتى مواقفهم وقضاياهم، التي تستدعي مخاطبة الآخر واستمالاته، وكان لها في جاهليتهم شأن عظيم، ومقام كريم؛ إذ فاقت منزلة الخطيب عندهم - في بعض الأحيان - منزلة الشاعر، حيث يقول أبو عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر، الذي يُفيدُ عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم، ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم، فلما كثُر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوق، وتعرّضوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"⁽²⁾، وهذا ممّا يؤكد أن الخطابة اكتسبت منذ نشأتها طابعاً رسمياً وجديداً. ومما يؤكد أيضاً على رقي الخطابة وأهميتها ودورها وازدهارها في العصر الجاهلي، ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام، عن قيس بن ساعدة الإيادي: "رأيتُه بسوق عكاظ، على جمل أحمر، وهو يقول: أيها الناس، اجتمعوا، فاسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت..."⁽³⁾.

جاء الإسلام، وانتهى بمجيئه العصر الجاهلي بما يحويه من عادات وممارسات سيئة، وأطلق كثيراً من الطاقات البشريّة الكامنة عند العرب حين تجسّد في عقولهم وصدورهم؛ حيث قدّم لهم الدين الجديد الحوافز الفكرية والوجدانية لتظهر لهم فصاحتهم وبلاغتهم الأدبيّة بأجلى مظاهرها وصورها. ثمّ إنّ التبدّل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس جاء لشحذ أذهانهم والإكثار من دواعي القول عندهم، وذلك حين أصبحت الخطابة لسان حال الدعوة

* السفسطائيون: هم من ينكرون الحسيات والبديهيات وغيرها مما أقره المنطق أو قبلته أحوال المجتمع السليم، وتعني في الأصل المعلم لأي فرع من فروع المعرفة، واختص بها بعد ذلك معلم البيان واللغة، والسفسطة في المعجم الوسيط هي من أتى بالحكمة المموهة.

(1) أبو زهرة، الإمام محمد، الخطابة أصولها تاريخها في أزهي عصورها عند العرب، مرجع سابق، ج2، ص6-8.

(2) الفلاح، قحطان صالح، (2005). في النثر العباسي، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سورية، ص11.

(3) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، مرجع سابق، ج1، ص308.

الإسلامية وأداتها الأولى التي تدعو العرب إلى نبذ العقائد الجاهلية، وتحثهم على الدخول في الإسلام واعتناقه كي يخرجوا من الظلمات إلى النور، كما كان من الواجب على الرسول ﷺ وخطباء الإسلام من بعده أن يردُّوا على وفود القبائل العربية وخطبائهم للكشف عن أكاذيبهم وإظهار مفاسدهم التي يُقدِّمون عليها، وشرح محاسن العقيدة الإسلامية التي تضمن لهم العزَّ في الدنيا والسعادة في الآخرة، فضلاً عما تقدّم فإن للخطابة دوراً مهماً في الحياة اليومية للمسلمين، إذ تقرب إليهم تعاليم دينهم وتعمِّق فهمهم له، ببيانها لأحكام الحلال والحرام، كما أنها تنظم علاقاتهم ومصالحهم، وحلّ مشاكلهم في ضوء مبادئه وأحكامه، وكان للخطابة دور بارز في الجهاد والفتوحات الإسلامية، حيث كان القادة والوعاظ الدينيون يلهبون مشاعر عساكرهم بما أعدّ الله من خير للمجاهدين والشهداء، فيتسابقون إلى ميادين الحرب والقتال من غير خوف أو رعب لتحقيق النصر أو الشهادة في سبيل الله. وامتاز أسلوب النثر الإسلامي بجميع أصنافه من خطابة وكتابة ورسائل بحسن سبكه وجمال رصفه وقوّة نظمه وإحكام فصوله والتّمام أجزاءه، وذلك بسبب تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف. كما امتاز ببعده عن الغرابة والاستكراه والسجع المتكفّف والخطأ في مقامات الكلام ومقتضيات الأحوال، كما امتاز بكثرة ما فيه من اقتباس من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، وبقوّة ووضوحه وجلاله وسلاسته مما تجده واضحاً في الآثار الفنيّة الأدبيّة التي حفل بها العصر الإسلاميّ الأوّل. ونرى أن هناك فجوة ما بين الخطابة في العصر الجاهلي والخطابة بعد مجيء الإسلام، حيث إن الهدف والغاية تختلف؛ وذلك يعود للرسالة السمحة والدعوة والفضائل التي جاء بها دين الإسلام، ومضى الإسلام يضيف الجلال والجمال إلى أدب النثر بشكل عام وإلى الخطابة بشكل خاص حتى يومنا هذا⁽¹⁾.

قد يرجع سبب ارتفاع فنون البلاغة في النثر بشكل عام والخطابة بشكل خاص في العصر الإسلامي إلى وجود القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر بتراكيبه العالية، وأساليبه البلاغية، والإعجاز في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد...⁽²⁾.

(1) الخفاجي، محمد عبد المنعم، (1990). الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت، ص98-101.

(2) محفوظ، الشيخ علي، فن الخطابة وإعداد الخطيب، مرجع سابق، ص56.

بلغت الخطابة ذروة ازدهارها في العصر الأموي، العصر الذهبي للخطابة العربية، جرّاء الأحداث السياسية التي عاشتها الدولة الأموية، واختلاف المسلمين على الإمامة؛ فبرزت الأحزاب السياسية والدينية والحركات الفكرية والمذهبية، كالخوارج^(*) والشيعية^(*) والمرجئة^(*) والقدرية^(*) والجبرية^(*) والموالي^(*) والأقباط^(*) والبربر^(*)، الذين اتخذوا الخطابة وسيلة لنقد الآخرين، وبيان آرائهم السياسية ونظرياتهم الحزبية والفكرية، واستمالة الناس إلى اعتناق مبادئهم وأفكارهم. أما في العصر العباسي الأول فقد أدت الخطابة دوراً مميزاً في الصراع السياسي وإدارة الحكم. وقد وصلتنا خطب عديدة من هذا العصر، مبنوثة في كتب الأدب والتاريخ، وكثيرٌ منها ذو مضامين سياسية، ومنها ما يمس السياسة مساً رقيقاً، كبعض الخطب الدينية والحقلية. ولعل أشهر خطباء السياسة في هذا العصر قد كانوا من بني هاشم، الذين كان لهم باع مديد في الخطابة والفصاحة، منذ رسول الله ﷺ؛ إمام البلغاء وسيد الخطباء. وقد سئل سعيد بن المسيّب: من أبلغ الناس؟ فقال رسول الله ﷺ، فقال السائل: إنما أعني من دونه، فقال: معاوية وابنه، وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح، فقال له الرجل: فأين أنت من علي وابنه، والعبّاس وابنه؟ فقال إنما عنيت من تقاربت أشكالهم، وتدانت أحوالهم، وكانوا كسهام الجعبة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام⁽¹⁾.

* **الخوارج:** هم الطائفة التي خرجت على حكم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب -عليه السلام- حيث كان ظهورها في عهد النبي -عليه السلام- وأول خارجي على النبي هو (ذو الخويصرة التميمي) ومن أوصاف هؤلاء عدم فهمهم للقرآن الكريم رغم حفظهم له، إضافة إلى تقتيلهم للصحابة -رضوان الله عليهم- وخاصة عبد الله بن خباب بن الأرت.

* **الشيعية:** مأخوذة من المشايعة بمعنى المتابعة، وهم طائفة من المسلمين يرون أن علي بن أبي طالب ونسله من زوجته فاطمة بنت النبي محمد -عليه السلام- هم أئمة تجب لهم الطاعة وهم المرجع الرئيسي للمسلمين بعد وفاة النبي -عليه السلام- وعرفوا تاريخياً بشيعة علي أو أتباع علي المسماة بـ"آل البيت"، وهم أصحاب العباءة: علي وفاطمة وأبناؤهم الحسن والحسين ومن يأتي من نسلهم.

* **المرجئة:** لغة من الإرجاء وهو التأخير والإمهال، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ...﴾ الشعراء: ٣٦، وفي الاصطلاح المرجئة كانت في آخر القرن الأول تطلق على فئتين، قال ابن عيينه -رحمه الله- قوم أرجأوا أمر علي وعثمان، فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم فهم قوم يقولون الإيمان قول بلا عمل.

* **القدرية:** أول الفرق الإسلامية المخالفة، وقد ظهرت في بداية عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وأول من أسسها غيلان القدري وقد قتله هشام بن عبد الملك بصلبه على أبواب الشام، وهي مفهوم يرى أن الله لا يعلم شيء إلا بعد وقوعه وأن الأحداث بمشيئة البشر وليس بمشيئة الله.

* **الجبرية:** (الجهمية) معنى الجبر نفي الفعل عن العبد، وفكرة الجبر ليست عربية وقد تلقاها الجعد بن درهم عن يهودي وتلقاها عن الجعد الجهم بن صفوان وقد شاعت وانتشرت في العصر الأموي لدرجة أن الخطباء على المنابر حثروا من الجهم بن صفوان وقالوا هذا اسمه مشتق من جهنم.

علما بأن التعريفات الثلاثة السابقة (المرجئة والقدرية والجبرية) كلها فرق معتزلة، وترى هذه الفرق تغليب العقل على النقل.

* **الموالي:** جمع مولى وهم الخدم والحلفاء في لغة العرب وتم استخدام المصطلح في زمن الخلافة الأموية، وهم المسلمون من غير العرب، أي من الفرس والأتراك والأفارقة وغيرهم.

* **الأقباط:** جمع قبطي، وهو اسم يوناني ويطلق على النصارى.

* **البربر:** كلمة إغريقية، وهم مجموعة من الشعوب التي تجمعت في عصر بني أمية، ولا ينتمون لحضارة العرب.

(1) الفلاح، قحطان صالح، مرجع سابق، ص 12.

تطور الخطابة في العصرين الجاهلي و صدر الإسلام

امتاز العرب في الجاهلية بالفصاحة والبيان، واعتمدوا الخطابة في المواقف التي تتطلب ذلك، ولمع عدد كثير من أسماء الخطباء الذين حفظ التاريخ لنا خطبهم، حتى صارت مثلاً يُضرب في الفصاحة والبلاغة والبيان. وقد أعاد الأدباء والباحثون أسباب وجود الخطابة عند العرب في الجاهلية، إلى التمتع بحرية القول التي قلما توفرت لغيرهم، إلى مقدرتهم القوية على الحديث والكلام، ومعرفتهم اللغة العربية الأصيلة ذات الجرْس الذي يثير المتكلم والسامع، لذلك كانت لديهم المقدرة على مواجهة الموقف الذي يطرأ دون أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً، ومع ذلك تأتي على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة، ومما قاله الجاحظ عنهم: "فما هو إلا أن يصرف (العربي) همّة إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً"⁽¹⁾.

لقد كان للعرب إسهام كبير في الخطابة، ودورٌ بارزٌ في ازدهارها وتطورها، وكل شيء عندهم، كان يؤهلهم لهذا الازدهار، كما أنهم استخدموا الخطابة في ميادين مختلفة، ولأغراض متنوعة كالمفاخرات^(*) والمنافرات^(*) بالأحساب والأنساب، والمآثر والمناقب والنزاعات والخصومات بينهم، والدعوة إلى الحرب والسلم، والمجالس والأسواق وساحات الأمراء ووفادتهم عليهم لإظهار براعتهم وتفنُّنهم في المقال وحوك الكلام. وأسعفهم في ذلك ملكاتهم البيانية، وما فُطروا عليه من قدرة على ارتجال الكلام والبيان والفصاحة وسرعة البديهة، ويقول الجاحظ عن الخطابة عند العرب: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همّة إلى الكلام"⁽²⁾.

لقد عرف عرب الجاهلية ألواناً من الخطابة، ولعلّ أبرزها: الخطابة الحفلية التي أدركت حظها الأوفر بين أنواع الخطابة برمتها في هذا العصر؛ لأنّ عرب الجاهلية لم يعرفوا ضروباً أخرى للخطابة: كالخطابة السياسية، أو القضائية، وحتى الخطابة الدينية لا نجد لها أثراً في حياتهم، فليس ثمة ما يدعوهم إلى التفكير والتأمل، وقد عكفوا على عبادة ما تصنعه أيديهم، كما إن موضوعات الخطابة الدينية لا تكاد تلتئم مع ما وصل إلينا من خطب ذلك العصر، فهي في الأعم الأغلب لا تعدو أن تكون وصايا اجتماعية، ولهذا لم يعرفوا من ضروب الخطابة إلا ما يتعلّق ببيئتهم وحياتهم فشاع هذا النوع من الخطب عندهم⁽³⁾.

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، مرجع سابق، ج3، ص28.

* **المفاخرات**: مفردتها مفاخرة وهي مجازة كلامية بين اثنين أو أكثر، وفيها يتباهى كل من المتفخريين بأحسابه وأنسابه.

* **المنافرات**: مفردتها منافرة، وهي كالمفاخرة وأشد وتقرر الرحيل إلى الحاكم ليقضي بينهما أي الخصوم وإذا فُضّل أحدهما على الآخر كان له غنم الحكم.

(2) ضيف، شوقي، (1960). تاريخ الأدب العربي، ط(11)، دار المعارف، القاهرة، ص412.

(3) النص، إحسان، (د.ت). الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، القاهرة، ص9.

وجميع العرب ساهموا في تطور الخطابة في العصر الجاهلي، ولكن بعض القبائل كان لها إسهام كبير في ازدهار الخطابة وبذلت قصارى جهدها في تطورها، ونبغ فيها الخطباء المُحْتَكُونُ ذُو الألسُنِ المُطْلَقَةِ والنَّاصِعَةُ البَيَانِ، ومن هذه القبائل المشهورة، قبيلة عدوان وأسد وتغلب وشيبان وكنب وقضاة وطيء وتميم وإياد. وممن اشتهروا بالخطابة الجامعة في هذه القبائل ولقوا الشيوخ والذيوخ في هذا الميدان: عامر بن الظرب من عدوان وربيعة بن حذار من أسد، وهاني بن قبيصة من شيبان، وزهير بن جناب من كلب وجندب بن عمار من طيء وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة من إياد. كما يُعدُّ كعب بن لؤي الجد السابع للرسول عليه الصلاة والسلام من أقدم الخطباء في كنانة، فقد كان يخطب العرب في الشؤون المختلفة، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير، وكان مهيباً مسموع الكلمة، ولما مات أكبروا موته، وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخاً حتى كانت الهجرة الفاصلة الفارقة للحق من لباطل من مكة إلى المدينة، فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأً لتاريخ المسلمين بعد التشاور مع أصحابه عندما أرسل كتاب إلى خالد بن الوليد وكان إذ ذاك والياً في الشام ووصل الكتاب متأخراً فأرسل خالد إلى عمر كتاب يقول فيه أنه يأتينا منكم كُتُبٌ ليس لها تاريخ، فجمع عمر أصحابه واقترحوا أن يكون التاريخ من مولده ﷺ أو من غزواته ومعاركه أو من مهاجره فأجمعوا أمرهم برأي علي أن يكون من هجرته ﷺ (1).

وبعد مجيء الإسلام، قامت الخطابة بعبء كبير في تبليغ رسالة الهداية والسماحة والطيبة، رسالة الإسلام السمحة، وشرح مبادئه، وكان ذلك سبباً قوياً في نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء الأفاضل الذين أغنوا اللغة العربية بخطبهم، وجاء نبي الإسلام على حين فترة من الرسل إلى أقوام^(*) صناعتهم القول، وجل عنايتهم البلاغة، وهذه حكمة الله -ﷻ- عندما بعث محمد كانت الأمة أمة بلاغة وفصاحة وبيان فأتاهم بنبي أفصح وأبلغ منهم بالقول، وعندما بعث عيسى كانت الأمة بأمر الحاجة إلى العلاج فأتاهم بنبي يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأمراض، وعندما كان موسى كانت الأمة أمة سحر فأتاهم بنبي ومعه آيات السحر العظيمة، فناداهم رسول الله -ﷺ- بأبلغ القول، وخاطبهم بأروع الكلام، وخطب في مجامعهم داعياً لرسالة الإسلام وناشراً لدعوته، حتى ضاقت صدور بعضهم بسماع قوله،

(1) أنظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج1، ص312.
* أقوام: أي رجال، وذلك ما تبين لنا من قول زهير بن أبي سلمى ساخراً ومتهكماً: وما أدري ولست إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء؟!.

بعد أن عجزوا عن مجادلته ومقارنته بالحجة بالحجة، مما جعل الخطابة الأداة الأولى للدعوة الإسلامية، والسلاح الذي يرفعه خصومه في الرد عليه، فكانت تلك الدعوة سبباً في ازدهار الخطابة ورفع درجة البيان، وحملت الدعوة الإسلامية في طياتها بذور التطور والتجديد في الصور الأدبية والفكرية والاجتماعية والحياتية، يُغذيها معينان لا ينضببان: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف⁽¹⁾.

كثرت في عهد الخلفاء الراشدين المواقف التي استخدموا فيها الخطابة؛ فضلاً عن خطب الجُمع والأعياد والاستسقاء، كانت تلك المواقف التي تجلّت فيها براعة هؤلاء الخلفاء، حيث كان أبرزها ما قاله أبو بكر الصديق حين انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى حيث قال: "فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت"⁽²⁾.

وموقفه يوم السقيفة^(*)، وخطبه في الجيوش الغازية، يحضُّ فيها على الجهاد نشراً للدين الحنيف في أطباق الأرض، إضافة إلى خطب القادة في كل قطر وموقع يفتحونه حائث الجنود على الصبر والقتال حتى الاستشهاد. وبعد وفاة أبي بكر الصديق التزم الخليفة عمر بن الخطاب نهج الخطابة الراشدية، ليس فقط في الجُمع والأعياد ومواسم الحج، بل مع كل حادث وحدث ومع كل خبر يأتيه بفتح، ومن خطبه تلك التي ألقاها بعد فتح بيت المقدس وكان منها: "أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكفوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي، ولا بينه وبين الله هودة، فمن أراد لحب (طريق) وجه الجنة فليزِم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وسأته سيئته فهو مؤمن"⁽³⁾.

(1) أبو زهرة، الإمام محمد، مرجع سابق، ج2، ص66.
(2) النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، (1998). **المستدرك على الصحيحين**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص14.

* بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام اجتمع الأنصار في سقيفتهم "سقيفة بني ساعدة" ورشحوا سعد بن عبادة ليكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعندما علم كبار المهاجرين (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) بذلك، ذهبوا إليهم على الفور وأعلنوا أنهم أحق بالأمر، ودار حوار بين المهاجرين والأنصار اشتد فيه الجدل والنزاع، وقد وقف زعيم الأنصار سعد بن عبادة قائلاً: "أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دقت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر"، فقام أبو بكر وألقى خطاباً ذكر فيه فضل المهاجرين، واحتج بقرشيتهم في أحقيتهم، بالخلافة كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه: فذهب إليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، حيث كان عمر قد أعدّ كلاماً، إلا أن أبا بكر تقدّم وسبقه بالكلام، فقال: لا، ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء.

(3) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (د.ت). **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج9، دار هجر للطباعة والنشر، ص657.

أخذت الخطابة الإسلامية تحل مع المسلمين في كل بلد افتتحوها، وكان هذا دون شك عاملاً من عوامل نموها، إذ تزايد عدد من يحسنون حوكها وصياغتها، مستلهمين من سور القرآن الكريم وخطب الرسول -ﷺ-، فيما يقدمون للناس من مواظب حسنة. وكان لكثير من الأحداث الأثر الكبير في ازدهار الخطابة في العصر الراشدي، ومنها ما دار بين عليّ وعائشة -رضي الله عنهما-، وكذلك الخطب التي جاءت إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-؛ إذ كانت المطالبة بدم الخليفة محوراً لكثير من الخطب، كخطب طلحة والزبير والسيدة عائشة -رضي الله عنهم أجمعين-، كما كان لخطب علي -كرم الله وجهه- ومناصريه، وما ردّوا به على خطب مناوئهم - دور في إثراء خطابة العصر الراشدي وازدهارها كما وكيفاً ونوعاً.

واقتمت الخطابة في العصر الراشدي ميادين كثيرة ومناسبات عديدة في السراء والضراء، مثل المناسبات السعيدة: كالزواج ونحوه، كما استخدمت في المحافل واستقبال الوفود والأحداث المتتالية، حيث مسّ هذا الاقتحام الموضوعات الخطابية، وأدى إلى تطورها وتنوع أغراضها، فصارت صدى لأحداث الحياة واتجاهاتها⁽¹⁾. وكان للقرآن الكريم أثره البالغ في الخطابة، إذ بعث في نفوس الخطباء حساً جمالياً دفعهم إلى مجارة أسلوبه، فأخذوا يوشحون خطبهم بالآيات تمثلاً وإشارة واستشهاداً ومجاراةً، ووضعها بالمقامات الملائمة لها من الخطبة، يقول الجاحظ: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي كلام يوم الجمع أي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقّة وسلس الموقع"⁽²⁾.

وصارت الخطبة التي تخلو من بعض أي القرآن تعرف بالخطبة الشوهاء^(*)، كما أن لنزول القرآن الكريم أثراً كبيراً على العرب، فقد أدهش الجميع ببلاغته وأسلوبه ومعانيه، وانقسم الناس بين مؤمن به وجاحد، وكانت أقوال المكذبين بالقرآن -كقولهم بأنه شعر وكهانة وسحر- محاولة منهم لمنع تأثيره في الناس، غير أن القرآن جاء وأعلن تحديه لهم بدرجات متفاوتة، أدناها أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فعجزوا وكانت الغلبة لبلاغة القرآن الكريم وفصاحة أسلوبه⁽³⁾.

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج2، ص144.

(2) المرجع نفسه، ص150.

* الشوهاء: مصطلح نقدي أطلق على الخطبة التي لم توشح بالآيات القرآنية الكريمة ولم تزيّن بالأحاديث النبوية الشريفة من شاه يشوه وهو مشوه.

(3) البغدادي، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة، (1982). نقد النثر، تحقيق طه حسين، وعبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص95.

مما سبق ذكره، نجد أنّ الخطابة كان لها دورٌ كبيرٌ قبل وبعد الإسلام؛ فالعرب في الجاهلية استخدموا الخطابة كأسلوب ومنهج للتفاخر والمدح والذم، وفي الحرب والسلام. وبعد الإسلام عزّز كل من الخطابة والإسلام الآخر، فالخطابة أسهمت إلى حد كبير في نشر الدعوة الإسلامية وفي إيصال رسالة الإسلام بصورة قريبة من طبيعة أقوال العرب وكلامهم ومخاطبتهم لبعضهم بعضاً. وفي المقابل، أسهم الإسلام في زيادة الاعتناء بموضوع الخطابة حتى أصبحت علماً بحد ذاته، له أفانينه وأصنافه، كما أنّ الأدوار التي مرت بها الخطابة أسهمت إلى حد كبير في ازدهارها، فالدور الأول وهو الجاهلي كان الأساس الذي بنيت عليه الخطابة، وأضاف الإسلام إلى الخطابة بأن أخرجها من الإطار الذي حُبست فيه في عصر الجاهلية، وهو الحرب والتفاخر، إلى إطار أرحب جعلها تتبوأ واجهة أشرف الدعوات على وجه الأرض، فاستُخدمت في إيصال الرسالة الحقة إلى البشرية جمعاء، وسار الأمويون على النهج الذي استقرت عليه الخطابة في بداية الإسلام، وهو النهج النبوي الدعوي الفصيح والبلوغ وعلى أنها فن لا يجيده إلا الخطباء المهرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن خطب الرسول ﷺ -المعلم الأول- التي وصلتنا تكاد تكون نادرة مقارنة بما وصلنا من الأحاديث النبوية، علماً بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب في جميع المناسبات كخطب الجمعة والعديد من الاستسقاء والكسوف والخسوف والزواج وغيرها من المناسبات الدينية، ولعل أبرز خطبه -ﷺ- خطبة عرفة في حجة الوداع التي جاء فيها: "إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم...."، تلك الخطبة التي تكاملت عناصرها اللغوية، واتسق بناؤه الفني؛ حيث رسم فيها -ﷺ- المبادئ العامة والأسس التي قام عليها الدين الإسلامي الحنيف فأشار إلى حرمة سفك الدماء وأكل الأموال بالباطل وخطر الربا، وبيّن فيها حقوق الزوجين اتجاهاً بعضهما البعض، كما وضّح طريقة تقسيم الموارِيث، وغيرها من المبادئ التي تحفظ حقوق العباد وتُنظّم أمور حياتهم بأسلوب لغوي رفيع المستوى، ومن عباراته -ﷺ- التي استعمل فيها أسلوب الحصر والتشبيه البليغ معاً قوله: ﴿إِنَّمَا السَّيِّئُ زِيَادَةٌ

فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْمَلُونَهُ، عَامًا وَيُحْمَلُونَهُ، عَامًا لِيُوَاطَعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ (1).

كما استعمل أسلوب التقديم والتأخير في حديثه عن حقوق النساء على أزواجهنّ والرجال على زوجاتهم، ومن ذلك قوله: "إنّ لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تکرهونه ببيوتكم، ولا يدخلن أحداً تکرهونه ببيوتكم إلا بإذنكم"، إلى غير ذلك من الأساليب اللغوية المعبّرة عن المعاني الواسعة بألفاظ موجزة، كيف لا؟ وقد أعطي -ﷺ- جوامع الكلم (2).

(1) سورة التوبة، الآية: 37.

(2) منصور، حمدي محمود، (2016). نصوص من النثر في صدر الإسلام والعصر الأموي، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمّان، ص 25.

الفصل الأول



ازدهار الخطابة في العصر الأموي

- توطئة
- العصر الأموي: امتدادُه وطبيعته ونُبذة تاريخية عنه
- تطور الحياة الفكرية والعلمية
- الأحداث السياسية والاجتماعية
- الفرق الدينية والكلامية وتأثيرها على حركة الفتوحات الإسلامية
- أنواع الخطابة في العصر الأموي
 - * الخطابة السياسية والحربية
 - * الخطابة الدينية
 - * الخطابة الاجتماعية

توطئة

ازدهرت الخطابة في العصر الأموي حيث كانت اللسان الناطق باسم الدولة الأموية وخصومها على السواء. والواقع أن الدولة الأموية وعصرها يمثلان نموذجاً للعجب، فتلك الدولة التي عاشت أقل من قرن هي التي امتدت فيها الفتوحات العربية فيما بين حدود الهند والصين شرقاً إلى جبال البرانس جنوب فرنسا، ودمرت أسطول البيزنطيين ووصلت بالفتح الإسلامي إلى بعض جزر البحر المتوسط، هذا في الوقت الذي عاشت فيه الدولة الأموية حروباً هائلة في الداخل ضد خصومها من الخوارج والشيعة والموالي والأقباط والبربر، وحتى من داخل البيت الأموي نفسه، وهكذا حتى جاء الخطر الأكبر على الدولة متمثلاً في الدعوة العباسية لتقضي على الدولة الأموية في ريعان شبابها بعد أن أجهدت نفسها في حروب داخلية وفتوحات خارجية، لذلك فإن التاريخ لهذه الدولة الأموية قد تم بعد سقوطها، وفي عهد الخلافة العباسية المعروفة بعنائها الشديد للأمويين؛ فغياب التدوين وعدم الاهتمام الكبير بالمراسلات الخطبية أفرد مكاناً مهماً للخطبة الشفهية المعبرة عن الروح الأصيلة للعربي الذي كان يفاخر وقتها بفصاحته وشجاعته، أو بأنه يمتلك فصاحة اللسان وشجاعة السنان، ومن هنا يمكن القول بأن الخطبة كانت أهم عنصر دعائي في العصر الأموي للخليفة أو الوالي أو الثائر على السواء، وبازدهار الخطب السياسية الدعائية فقد عرف العصر الأموي ما يمكن تسميته بالمناظرات الخطابية، حيث كانت الخطبة تحل محل السلاح في موضع لا مجال فيه لاستعمال هذا الأخير، وحينئذ يتم التحارب بالخطب بديلاً عن الأسلحة.

العصر الأموي: امتداده وطبيعته ونُبذة تاريخية عنه

امتد العصر الأموي ما بين (40-132هـ) (661 - 750م)، وتعود تسميته إلى بني أمية وهم من قريش. كان لهم نفوذ وأمجاد بعد مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - عليه السلام، فقد استولوا على الحكم وجعلوا الخلافة وراثية فيهم. وظهر في هذا العصر صراع على السلطة، كما نشأت أحزاب سياسية متناثرة في أنحاء الدولة الأموية مثل الشيعة والخوارج والزُّبيريون^(*) من الناحية السياسية. أما من الناحية الاجتماعية، فقد راح إيقاع الحياة يبتعد عن البداوة ويأخذ بأسباب الحضرة والتمدن بسبب اتصال العرب بسكان الأماكن المفتوحة، وكان للامتزاج بين هذه العناصر، وازدهار الاقتصاد والعمران، فضلاً عن السياسة التي اتبعتها الخلفاء الأمويون في تسيير دفة الحكم - آثار بارزة في إغناء هذه الحياة الاجتماعية. وفي هذا

* الزُّبيريون: هم أنصار عبد الله بن الزبير، وينسبون إليه، وهم مجموعات مهاجرة قدمت من نجد واستوطنت الزبير التي تقع جنوب غرب البصرة في العراق.

العصر راحت العلوم المختلفة تبرز وبخاصة العلوم الإسلامية والشرعية (قراءة القرآن/ التفسير/ الحديث/ الفقه) واللسانية (نحو/ صرف/ حركات/ إعجام)، وقد تركز هذا النشاط العقلي في كل من الكوفة والبصرة؛ حيث تكاثرت المجالس التي تُناقش فيها المسائل السياسية والدينية. أما مدن الحجاز كمكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد كانت مراكز لعلوم الحديث والتفسير نظراً لوجود الصحابة والتابعين فيها.

تطور الحياة الفكرية والعلمية

برز دور الحركة الفكرية والعلمية للعصر الأموي بعد انتهائه؛ وذلك عندما وظّف العباسيون التطور الفكري والعلمي للأمويين في التمهيد لنهضتهم الفكرية. ومن أبرز هذه التطورات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد عبد الملك بن مروان، الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية تستعمل في كل أرجاء الدولة الإسلامية، كما أسهم ابنه الوليد في إنشاء المدارس والمستشفيات برعاية الدولة، ومن أبرز الإنجازات على صعيد تطوير الحركة العلمية في العصر الأموي تدوين العلوم وتعريبها للمرة الأولى، ممّا أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسهولة ويسر، كما أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها وعاداتها وتقاليدها وتجاربها وخبراتها والإفادة من الإيجابي منها في إغناء الحضارة الإسلامية، ونشر علوم اللغة والأدب العربي المختلفة بين أبناء هذه الشعوب، هذا بالإضافة إلى العلوم الشرعية والتاريخية والفلسفية والطبيعية⁽¹⁾، لذلك تُعدّ العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب من أهم المجالات التي ازدهرت في العصر الأموي، وقد انقسمت الحركات العلمية في هذا العصر إلى أربع حركات هي: الحركة الدينية (المعنية بعلوم الدين، مثل تفسير القرآن والأحاديث والتشريع)، والتاريخية (المعنية بتوثيق التاريخ والقصص والمغازي ونحوها)، والأدبية (المعنية بالشعر والنثر وما إلى ذلك) والفلسفية (المعنية بالمنطق والكيمياء والطب وما شابهها). لكنّ الأمويين لم يميلوا إلى دعم العلوم؛ فلم يقدّم خلفاؤهم أو أمراؤهم الدعم سوى لحركتين هما: الأدبية والقصصية من بين كل هذه الحركات العلمية، إذ لم يكن يُمتعهم ويجذبهم سوى الشعر والخطب والقصص، وربّما كان ذلك بسبب نزعة عربية بدوية عندهم، ولا يُستثنى من هذا سوى خالد بن يزيد بن معاوية، الذي كانت لديه نزعة فلسفية فوق نزعته الأدبية، ودعم بشدّة الحركات العلمية في مجالات الطب والكيمياء والفلك، بالإضافة إلى عمر بن عبد العزيز الذي دعم الحركة الدينية⁽²⁾.

(1) المصنف، عبد الرحمن أحمد حفظ الدين، (2000). الحركة العلمية في العصر الأموي في المشرق

الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صنعاء، اليمن، ص54.

(2) أمين، أحمد، (2008). فجر الإسلام، بحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، شركة نوايغ الفكر للنشر، مصر، ص160-164.

لم يظهر الاختصاص العلمي في العصر الأموي، فلم يكن هناك عالم بالحديث فحسب أو التفسير فحسب على سبيل المثال، إنّما كان العالم الواحد يخوض في التفسير والحديث والمغازي والتاريخ والأدب؛ لأن الوقت كان مبكراً كي تتخصّص العلوم، ولم تكن قد صُفِّت بعد وعُرِّفت بالقدر الكافي. وقد كان هذا وضع التعليم أيضاً، فيسرد المعلم في الجلسة الواحدة عن علوم كثيرة، لكن مع الوقت بدأت الجلسات التعليمية بالتخصّص على الرغم من معرفة المعلمين فعلياً بالكثير من العلوم. وكان أول من أنشأ مدارس منظمة تعمل برعاية الدولة وتحت إشرافها في التاريخ الإسلامي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وساعد انتشار المدارس على التهيئة أكثر للنهضة العلمية العباسية اللاحقة، كما يُحسب للوليد أنه أول من أنشأ المستشفيات (البيمارستانات) في التاريخ الإسلامي وهي دور علاجية وظيفتها إيواء المعاقين وذوي الأمراض العقلية والعصبية الذين يدعون اليوم (بذوي الإحتياجات الخاصة) هي من أفضل التسميات على الإطلاق، وقد اعتمدت كثير من المشافي التي أنشئت لاحقاً في أوروبا على نمط وأسس مشافي الوليد بن عبد الملك، وأصبح الأطباء الجدد يتعلمون على أيدي أطباء هذه المشافي، وكان ذلك البادرة الأولى لولادة المدارس الطبية في التاريخ⁽¹⁾.

شهد عهد الوليد أيضاً حركة ترجمة ضخمة جداً كان لها أثر كبير في نهضة الحضارة الإسلامية؛ إذ أمر بتعريب دواوين الدولة الأموية كلها شرقاً وغرباً. وقد عاصره خالد بن يزيد بن معاوية رائد حركة الترجمة، في العصر الأموي، فقد كان مولعاً بالعلوم وأمر بترجمة كثير من كتبها باللغة الإغريقية إلى العربية، فأصبحت بهذا لغة العلوم كلها في الدولة الأموية، بما في ذلك الطب والصيدلة والكيمياء، واللغة العربية وغيرها. وأصبح لزاماً على من يريد أن يضطلع على هذه العلوم تعلم العربية اللغة الأم، فأخذت اللغة بالازدهار. كما حدث بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك على الترجمة وأمروا بترجمة الكتب البارزة في العلوم والتاريخ والأدب. وقد ساعد على ازدهار حركة الترجمة وجود كثير من السريان الذين يجيدون العربية، فقادوا حركة الترجمة هذه، وأسهموا في انتشار المدارس والعلوم في العراق والشام⁽²⁾. ومع أن المؤرخين لا يجمعون على زيادة خالد بن يزيد في حركة الترجمة والتعريب وعلى ازدهارها في العصر الأموي -حيث شكك بعض المؤرخين الأوروبيين بحجم حركة الترجمة في العصر الأموي ومدى ازدهارها- إلا أن ما ورد عن حركات الترجمة والتدوين في العصر الأموي يرجح أن جذور هذه الحركة قد انطلقت في ظل

(1) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، (1996). العصر الأموي، المجلد الثاني، دار سفير للنشر، القاهرة، مصر، ص 99.

(2) أمين، أحمد، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 132.

الدولة الأموية قبل أن تزدهر في أيام العباسيين. لكن معظم ما كُتِبَ وُثِرَ جَمَ وأُلفَ من كتب ودواوين في العصر الأموي فُقِدَ ولم يصلنا منه سوى القليل جداً، وأغلب ما يُعرَفَ عن حركات الترجمة والتدوين فيه مأخوذة من كتابات المؤرخين القدماء. وأما في العصر العباسي فقد كانت لا تزال كثير من الكتب الأموية باقية، وكان لها دورٌ في تنشيط النهضة العلمية العباسية التي تمخضت عنها أعمال أكثر رقياً وتطوراً⁽¹⁾.

تمركزت مقارُ الحركة العلمية الدينية خلال العصر الأموي بشكل أساسي في المساجد، وبعدها أنشئت المكاتب لتحفيظ الصبيان الصغار القرآن وتعليمهم مبادئ الدين، حيث أُلِّفَ خلال العهد الأموي عددٌ من الكتب في علم التفسير، ومن أبرز المفسرين في هذه الفترة مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبيرة وسعيد بن المسيب والحسن البصري ومحمد بن سيرين. غير أن جميع مؤلفاتهم ضاعت، وأقدم كتاب في التفسير وصل إلينا يعود إلى العصر العباسي، وهو كتاب "معاني القرآن" للفراء. وأما علم الحديث فقد استُهلَّ خلال العصر الأموي، وطوال القرن الأول الهجري كان يُتناقل شفويًا بين الناس ولم يُدوَّنَ أبداً في تلك الفترة؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن تدوينه خشية اختلاطه بالقرآن. وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خشي أن يضيع الحديث بموت العلماء الذين يحفظونه فأمر بتدوينه وكتب إلى ولاته على أقاليم الدولة المختلفة وكلف كلا منهم بجمع الأحاديث النبوية الشريفة من العلماء والحفاظ كلٌّ في ولايته، وبهذه الطريقة بدأت حركة تدوين الحديث بالتوسع تدريجياً، وقضى كثير من العلماء سنوات طويلة في جمعه وتدوينه. ومن أبرز المحدثين في العصر الأموي محمد بن مسلم الزهري وابن إسحاق وسفيان الثوري ومحمد بن راشد اليماني وابن جريج المكي ومالك بن أنس، ومع ذلك فإن عصر المحدثين الذي تحرر فيه العلماء الأحاديث وصنّفوها ووثّقوها حسب صحتها لم يبرز إلا في القرن الثالث الهجري. كما وُلِدَ اثنان من الأئمة الأربعة وعاشا خلال العصر الأموي، وهما أبو حنيفة النعمان ومالك بن أنس، صاحبا المذهبين: الحنفي والمالكي، وقد انتشر المذهب الأول خلال العصر الأموي في مصر والعراق وفارس ووسط آسيا، فيما انتشر الثاني في مصر والمغرب العربي. وقد عاش أيضاً خلال هذه الحقبة فقيهان كبيران آخران هما الأوزاعي: إمام الشام، والليث بن سعد: إمام مصر. وقد كان لكليهما مذهبان، غير أن مذهبيهما اندثرا لعدم وجود تلاميذ لهما ينشرون آراءهما الفقهية⁽²⁾.

(1) أمين، أحمد، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 169.

(2) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، 100-103.

وكان أولّ اعتناء للعرب بالكيمياء قد ظهر في مطلع العصر الأموي على يد خالد بن يزيد بن معاوية؛ إذ كان شغوفاً بالحصول على كتب يونانية وقبطية للتعرف على صنعة الكيمياء، وقد استعان لذلك براهب إسكندرانيّ اسمه "اصطفان" كي يترجمها له، وقد كان لخالد دورٌ أساسي في نهضة العرب بالكيمياء، ووضعَ هو نفسه عدداً من المؤلفات فيها بعد أن أتقن صنعتها، منها "كتاب الحرارة" و"الصحيفة الكبرى" و"الصحيفة الصغرى" و"السر البديع في فك رمز المنيع في علم الكاف" و"فردوس الحكمة في علم الكيمياء منظومة شعرية"، غير أن الكيميائيين المسلمين البارزين لم يَظهروا حتى العهد العباسي. وأما علم الفلك فلم يكن له هو الآخر نصيبٌ كبير من الاعتناء في العصر الأموي، وظلت المعرفة به محدودة، عدا عن ترجمة كتاب فلكيٍّ واحد مشهور، كان الكتاب الوحيد المعرَّب خلال هذه الفترة وهو "عرض مفتاح النجوم" لهرمس الحكيم، الذي تُرجمَ سنة (125هـ) بأمر من خالد بن يزيد⁽¹⁾. غير أن معرفة المسلمين بالفلك لم تتطوّر عموماً في عصر الأمويين. وبخصوص الأحياء والنبات فإن العرب لم يبدؤوا الاعتناء بها وتصنيف الكائنات الحية حتى النصف الثاني من القرن الثاني الهجريّ، ولم يكن لها أي وجود تقريباً في أيام الأمويين⁽²⁾، لكن علم الطب في العصر الأموي تأثر كثيراً بالطب اليوناني، وقد ساهم في تطويره وُجود كثير من الأطباء النصارى الذين عيَّهم الخلفاء الأمويون، حيث تُرجمَ هؤلاء الأطباء كثيراً من الكتب الطبية من السريانية إلى العربية لتكون أولى الكتب المدوّنة باللغة العربية في علم الطب، مثل كتاب "كناش في الطب"، وكتابين آخرين هما: "قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها" و"قوى العقاقير ومنافعها ومضارها"⁽³⁾.

مما سبق نجد أن العصر الأموي، يعدّ من أكثر العصور الإسلامية التي تلت صدر الإسلام إنجازاً وازدهاراً في كثير من مجالات العلوم، وأسهم في ذلك انتشار المدارس المتخصصة، فضلاً عن حركة الترجمة التي نهض بها الأمويون، والخطابة بوصفها أهم الفنون الأدبية التي نالها ما نال غيرها من تطور وازدهار.

(1) فروخ، عمر، (1970). تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص242.
(2) عبد الرحمن، حكمت نجيب، (1977). "دراسات في تاريخ العلوم عند العرب"، ط(4)، جامعة الموصل، ص182-183.
(3) المرجع نفسه، ص274.

الحوادث السياسية والاجتماعية

في أواسط عهد الخليفة عثمان بن عفان، اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية، وأخذت بالانتشار شيئاً فشيئاً، حتى أدت في شهر ذي الحجة من عام (35هـ) إلى مقتله. ولكن الفتنة لم تنته بمقتله، فجاء عهد علي بن أبي طالب مليئاً بالصراعات والنزاعات التي لم يوفق في إنهاء معظمها، مع أنّ عليّ بن أبي طالب - عليه السلام - خليفة ناجح لكنه ابتليَ ببعض الحاشية التي وقعت في الصراعات والقتال والنزاعات، كما ورد بالأثر أنه أتاه رجل وقال يا أمير المؤمنين لما كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله تعالى عنهم - كانت أمور الخلافة أيسر من الآن والنزاعات أقل، فقال الإمام عليّ بردٍ ذكي: "يا ألكن لما كان أبو بكر وعمر وعثمان كنت أنا وأمثالي من رجالهم، ولما توليت الخلافة ابتليتُ بك وبأمثالك". وفي شهر رمضان من عام (40هـ) اتفق ثلاثة من الخوارج هم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي السعدي - على أن يقتل الأول منهم علياً بن أبي طالب والثاني معاوية بن أبي سفيان - والي الشام إذك - والثالث عمرو بن العاص - والي مصر إذك - معاً في نفس الليلة، فنقذ الأول مهمته، وأما الاثنان الآخران ففشلا وقتلا.

كان معاوية والياً على الشام منذ سنة (18هـ) بعد أن عينه عثمان بن عفان، وعلى الرغم من الصراعات الداخلية والحرب الضروس في صفين^(*) بين علي ومعاوية إلا أن معاوية ظلّ والياً على الشام حتى مقتل علي - عليه السلام -، لقد كان صراعاً دامياً وحرباً ضروساً ومعارك تلو المعارك، وبعد مقتل علي مباشرة بايع أهل العراق ابنه الحسن بالخلافة، فيما بايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، فحشد معاوية جيوشه وسار إلى الحسن، غير أن الحسن رفض القتال، وراسل معاوية للصلح، فسر سروراً كبيراً بالعرض ووافق عليه، وعقد الصلح في شهر ربيع الثاني سنة (41هـ)، وهكذا تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وسُمّي ذلك العام بعام الجماعة؛ لأن المسلمين اتفقوا فيه على خليفة لهم بعد خلاف طويل دام سنوات⁽¹⁾.

* **وقعة صفين:** هي التي حدثت في السنة الـ (37هـ)، بين جيشي معاوية بن أبي سفيان، وعلي بن أبي طالب، فعند استلام علي الخلافة بعد وفاة عثمان بن عفان، امتنع أهل الشام عن مبايعته وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، فصدر قرار بعزل معاوية عن إمارة بلاد الشام، الأمر الذي رفضه معاوية، فقام علي بالتحرك من الكوفة في العراق باتجاه الشام لقتال أهلها لتمنعهم عن مبايعته، وكان رأي معاوية في عدم مبايعته لعلي، بأنه الأولى له تسليم قتلة عثمان بن عفان قبل مبايعته خليفة للمسلمين، وكان رأي علي أن تتم مبايعته من قبل معاوية بصفته والياً على الشام يجب أن تتم أولاً، وينظر بعدها بشأن قتلة عثمان، وهكذا فقد قام علي بإرسال (الأشتر النخعي) على رأس جيش كبير، من جهة أخرى قام معاوية بن أبي سفيان بإرسال جيش يقوده (حبيب بن مسلمة) للقاء ومنازلة جيش علي، علماً بأن معاوية لم يرفض شخص علي وأحقيقته بالخلافة، لكنّه أصرّ على المطالبة بدم عثمان.

(1) ابن الأثير، عز الدين أبا الحسن، (1979). **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، المجلد(2). ص394-405.

كانت حركة الفتوحات الإسلامية قد توقفت منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة (35هـ)، وظلت متوقفة طوال عهد علي بن أبي طالب، حيث كانت الدولة منشغلة بنزاعاتها الداخلية، لكن الاجتماع مجدداً على خلافة معاوية أعاد الفتوحات من جديد، وقد تركزت الفتوحات في عهده بالحروب مع البيزنطيين (في شمال أفريقيا والجباهات البحرية) وفتوحات المشرق (في سجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر). كانت الفتوحات في أرض الأناضول قد توقفت قبل خلافة معاوية عند سفوح جبال طوروس قرب مدينة مرسين، وهناك أقام كل من المسلمين والبيزنطيين على جانبي الحدود، حصوناً وقلاعاً كثيرة. وعلى الرغم من الغزوات الكثيرة التي شنّها المسلمون في عهد معاوية (خصوصاً الصوائف والشواتي) إلا أنّ حدود الدولتين لم تتغير كثيراً، لكن أبرز أحداث عهده تمثل بتمكن المسلمين من استعادة أرمينيا التي كانوا قد خسروها في أيام الفتنة، بالإضافة إلى أن بعض غزوات الصوائف والشواتي تمكّنت من التوغل في الأناضول حتى عمورية القريبة من مدينة أنقرة⁽¹⁾.

كان من أبرز التغيرات على الصعيد السياسي في عهد معاوية بن أبي سفيان، أنه نقل عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق، بعد أن كان علي قد نقلها من المدينة إلى الكوفة. وقد أثار هذا الإجراء سخط بعض أهل العراق والحجاز. كما شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومتابعة الفتوحات بعد توقف طويل. وألغى في عهده نظام مجلس الشورى (النظام الإسلامي السياسي القديم) رغم أنه ظلّ يستشير أصحابه ومن حوله دائماً في أغلب أفعاله، وأنشأ نظاماً للشرطة لحمايته وحراسته أشرف عليه بنفسه، وطور ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه هو ديوان الخاتم⁽²⁾.

نشبت كثير من القلاقل أو النزاعات في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث حاول الخوارج أن يثوروا من جديد على الخلافة فقاتلهم، وبحلول عام (45هـ) نجح في إخماد ثورتهم وعاد الاستقرار الداخلي إلى الدولة، وظلّ الوضع كذلك حتى وفاته في شهر رجب سنة (60هـ). وكان معاوية قد جعل أهل الشام والمدينة يبايعون ابنه يزيد منذ سنة (50هـ)، وأصبح يزيد ولياً للعهد. وبما أنه كان بعيداً عن دمشق عند وفاة والده فقد أخذ البيعة له الضحّاك بن قيس، وعندما عاد بدأت الوفود بالقدوم لتعزيته بوفاة أبيه وتهنئته بالخلافة⁽³⁾.

(1) شاكر، محمود، (2000). التاريخ الإسلامي، المجلد (4)، ط(7)، دار المکتب الإسلامي للنشر، ص88-94.

(2) العث، يوسف، (1985). الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، ط(2)، دار الفكر، دمشق، سورية، ص140.

(3) شاكر، محمود، مرجع سابق، ص115.

ظهر صراع جديد مع بداية عهد يزيد، فقد كان من ضمن شروط تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أن يُصبح هو الخليفة بعد وفاة معاوية، غير أنه توفي قبل معاوية بعشر سنوات. وعندما حدث ذلك اجتمع أهل الكوفة في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، واتفقوا على مُراسلة أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب بالقدوم إليهم لمُبايعته على الخلافة⁽¹⁾. وقد ارتاب عبد الله بن عباس من هذه الدعوة، ونصح الحسين بالحد من أهل الكوفة وعدم الاستجابة لهم، غير أن عبد الله بن الزبير -الذي كان هو نفسه يطمع بالخلافة، وأراد إبعاد الحسين عن الحجاز لكي تخلو له- حثه على الذهاب وأقنعه بالاستجابة لهم، فافتتح الحسين بذلك، وكان قد رفض بيعة يزيد منذ تعيينه ولياً للعهد. وعندما جاءت رسائل أهل الكوفة أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستطلع الأوضاع، فبايعه هناك عدد كثير من أهل الكوفة، وعندما علم يزيد بذلك عزل النعمان بن بشير عن ولايتها وعيّن مكانه عبيد الله بن زياد⁽²⁾، فقبض هذا سريعاً على مسلم بعد أن تركه أهل الكوفة وانفضوا عنه وقتله، ووصلت هذه الأخبار إلى الحسين وهو في طريقه، لكن رجاله - وعددهم 70 - أصرّوا على مواصلة السير للثأر لمسلم، والتقى هؤلاء قرب كربلاء بجيش يفوقهم عدداً بـ50 ضعفاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعلى الرغم من عرض الحسين السلام فقد أصرّ عمر على أن يُسلم الحسين نفسه كأسير حرب، ورفض الحسين، ف وقعت معركة كربلاء في 10 محرم سنة (61هـ)، وقتل الحسين وكل من كان معه، وكانت تلك بادرة لانقسامات كبيرة في الدولة الإسلامية ستدوم قرناً طويلاً⁽³⁾.

كان عهد يزيد مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، وقد سُمي لذلك بـ"الفتنة الثانية"⁽⁴⁾، وكان من أكبر هذه الفتن في عهده مقتل الحسين. وعندما قتل الحسين استغلَّ عبد الله بن الزبير الحدث ليُشهر بيزيد ويُحرّض أهل الحجاز عليه، وبالفعل بايعه أهل الحجاز ومصر، وحاصروا بني أمية في المدينة بمنزل مروان بن الحكم، فغضب يزيد غضباً شديداً⁽⁵⁾، وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة، وأمره بمحاصرتهم ثلاثة أيام، فإن أبوا إطلاق سراح بني أمية ومُبايعته فليقاتلهم⁽⁶⁾.

(1) العث، يوسف، مرجع سابق، ص165.

(2) شاكر، محمود، مرجع سابق، ص1223-126.

(3) قباني، محمد، (2006). الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط، دار وحي القلم للطباعة والنشر

والتوزيع: دمشق، ص24-27.

(4) العث، يوسف، مرجع سابق، ص165.

(5) المرجع السابق، ص174.

(6) المرجع نفسه، ص175.

وعندما بلغ المدينة دخلها من جهة تُسمى الحرّة، وهناك التقى أهلها، لكنهم رفضوا مبايعة يزيد، وكانت موقعة الحرّة سنة (63هـ)، وهُزِمَ أهل المدينة وقتل (300) منهم، ودخل مسلم المدينة عنوة واستباحها وقتل كثيراً من أهلها وأجبرهم على مبايعة يزيد بالقوّة⁽¹⁾، ثم سار مسلم نحو مكة للقضاء نهائياً على ثورة ابن الزبير، لكنه توفي في الطريق إلى مكة، فتولّى قيادة الجيش "الحصين بن نمير"، لكنه عند وصوله وجد ابن الزبير ورجاله مُعتصمين في الكعبة أملاً في الحصول على الأمان نظراً لحرمتها، غير أن جيش يزيد نصب المنجنيقات حول الكعبة وأخذ بضربها، وكان ذلك في صيف عام (64هـ)، ثم وصلت أنباء وفاة يزيد، فاضطرب الجيش وعاد إلى الشام تاركاً ابن الزبير دون قتله⁽²⁾.

كان يُفترض أن يرث معاوية بن يزيد الحكم بعد أن عيّن والده ولياً للعهد قبل وفاته، لكنه تنازل عن الخلافة وقال إنه لا يُمكنه حمل عاتقها، وتوفي بعد ذلك بأسابيع، وهُنا تقدم شيخ بني أمية ووالي المدينة مروان بن الحكم وطالب بالخلافة لنفسه وبايعه أهل المدينة واليمن، غير أن ابن الزبير أعلن نفسه خليفة في الآن ذاته، وبايعه أهل العراق ومصر بل ومعظم أهل الشام، ومنهم الضحّاك بن قيس الفهريّ، فسار إليه مروان والتقاء في معركة "مرج راهط"^(*)، وقتل الضحّاك في المعركة وبُويع مروان، وقد استعاد أيضاً مصر دون قتال كبير، غير أن مروان سُرعان ما توفي في شهر رمضان سنة (64هـ)، بعد حكم دام عشرة شهور، وقد تولّى الخلافة بعده ابنه عبد الملك، لكنه استلم الحكم وبلاد المسلمين مقسومة بين خمس دول؛ فالإلى جانب الدولة الأموية في مصر والشام كانت هناك دولة ابن الزبير في الحجاز والعراق، كما نجح المختار الثقفي بعد ثورته في السيطرة على الكوفة، وقد سيطر بعض الخوارج بعد ثورتين على إقليميّ الأهواز والنجدان، ولكن سُرعان ما قضى مصعب بن الزبير بجيشه على المختار الثقفي الذي التحمّ معه عبد الملك -بعد ذلك- في "معركة دير الجاثليق"^(*) سنة (71هـ) فاستعاد العراق، وفي نهاية المطاف أرسل جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة سنة (73هـ)، فحاصر ابن الزبير هناك في الكعبة، فصرعه، وبعدها كوفئ الحجاج بأن أصبح والي العراق والمشرق، وهكذا استتبّ الحكم أخيراً لخليفة واحد في البلاد بعد أن عصفت الصراعات الداخلية بالدولة الأموية لعقد ونصف تقريباً، وسُميت سنة 73 هـ بـ"عام الجماعة الثاني"⁽³⁾.

(1) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 10-11.

(2) العث، يوسف، مرجع سابق، ص 177.

* **مرج راهط:** معركة بين مروان بن الحكم والضحّاك بن قيس (64هـ)، استغرقت 20 يوم وانتهت بنصر مروان بن الحكم.

* **دير الجاثليق:** معركة بين عبد الملك بن مروان وجيش الشام والأمويين وجيش مصعب بن عمير وجيش العراق.

(3) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 11.

لم تستتبّ الأمور تماماً في الدولة بسقوط الدولة الزبيرية، إذ ظلت مشكلة الخوارج قائمة إلى أن قضى عليها الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعدها لم تقم للخوارج قائمة حتى عهد عمر بن عبد العزيز. واشتهر عهد عمر بن عبد العزيز بأنه عهد عمّ فيه رخاءً واستقراراً عظيم في أنحاء الدولة الأموية، وساد فيه العدل، حتى يُقال إنّ المتصدقين كانوا يبحثون فيه عن فقراء ليعطوهم المال فلا يجدون، كما أنه كثيراً ما يُلقب لهذا السبب بـ"ال خليفة الزاهد"، أو "خامس الخلفاء الراشدين"، حيث قيل إن أيام الخلافة الراشدة قد عادت في عهده⁽¹⁾.

عندما بُويع عُمر بالخلافة قرّر وقف الفتوحات نظراً لاتساع الدولة الكبير، وتوجّه بدلاً من ذلك لتوطيد الحكم وإصلاحه والاهتمام بأمور الناس ودعوة أهل المناطق المفتوحة إلى الإسلام بدلاً من فتح المزيد من البلاد. وقد أخذ عمر بن عبد العزيز أيضاً من بني أمية ما في أيديهم من مال وأعادته إلى بيت مال المسلمين، وقد أغضب ذلك بني أمية وجاءوا إلى بيته يشتكون، غير أنه رفض رفضاً شديداً، وقال: "إن الله بعث محمداً رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهر شربهم سواء، ثم وليّ أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم وليّ عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبسّ النهر الأعظم، فلم يُرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه"⁽²⁾.

اتسمت الحياة الاجتماعية في العهد الأموي بظهور الطبقات الاجتماعية، ويُمكن القول إنّ المجتمع في عهد الدولة الأموية قد تألف من خمس طبقات أساسية هي: الخلفاء والولاة والعلماء والأثرياء والعامّة، فالطبقة الأولى هي الخلفاء وعائلاتهم، وهم أصحاب السلطة والسيادة العليا في الدولة ولهم الصلاحيات المطلقة بها، ثم يليهم كبار الولاة والقادة وكاتبو الدواوين، فالعلماء الذين بالرغم من تصنيفهم في الطبقة الثالثة إلا أن احترام العامة لهم يفوق احترامهم وتقديرهم للولاة والخلفاء أنفسهم. ثم كبار الأثرياء من التجار وشيوخ العشائر، وأخيراً تأتي الطبقة الخامسة وهي عامة الناس، مثل العمال والفلاحين والحرفيين⁽³⁾، فقد امتاز المجتمع في العصر الأموي بالترف والثراء. ولم ينعكس ذلك على المناسبات والعادات الاجتماعية فحسب، وإنما على ملابس العامة أيضاً، فتنافس الناس وخصوصاً الخلفاء وكبار رجال البلاط في شراء الملابس الجديدة والفاخرة والمتميزة، وأصبح الجميع يرتدون جباباً

(1) قباني، محمد، مرجع سابق، ص 57.

(2) ابن الأثير، مرجع سابق، ص 65.

(3) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 43.

وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. ومع ازدياد الإسراف أصبح التجار يجلبون معهم إلى البلاد الإسلامية مختلف أنواع الحرير والصوف بين موثى ومطرز ومحاك بالذهب والفضة ومرصع بالأحجار الكريمة، وكان خلفاء بني أمية يرتدون ملابس بيضاء على الأغلب؛ ومن أفر أنواع القماش المطرز⁽¹⁾.

كان الخلفاء الراشدون يعيشون حياةً بعيدة عن الأبهة، ولم تكن تختلف عن حياة أي مواطن عادي في عهدهم، فلم يكن أبو بكر - على سبيل المثال - يتقاضى راتباً، وكان عمر يستعين على الإنفاق على نفسه إبان خلافته بما يربحه من التجارة. وعندما أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة، إثر مقتل الإمام علي بن أبي طالب، تأثر بنظم الحكم التي كان البيزنطيون يطبقونها في الشام فعاش حياة الملوك، واتخذ عرشاً للملك، وأقام الشرطة لحراسته، ودفعه مقتل ثلاثة خلفاء من قبله إلى أن يبني مقصورةً خاصةً في المسجد يُصلي بها منفرداً عن الناس، وحين عُهد بولاية العهد إلى ابنه يزيد استحدث للدولة الإسلامية تقليداً جديداً، فقد أصبحت الخلافة ملكاً وراثياً بعد أن كانت باختيار أهل الحل والعقد لأبي بكر والتعيين لعمر والاختيار من أصحاب الشورى الستة لعثمان⁽²⁾.

الفرق الدينية والكلامية وتأثيرها على حركة الفتوحات الإسلامية

امتدت الدولة الإسلامية خلال فترة حكم الأمويين حتى وصلت كاشغر في الصين شرقاً، والأندلس وجنوب فرنسا غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً، وعمل الخلفاء الأمويون بجد ومثابرة على نشر الإسلام، والعمل على استتباب الأمن وتوطيد الحكم الإسلامي، حتى أصبحت هذه المساحة من الأرض بمن عليها من أمم وشعوب تشكل عالماً إسلامياً واحداً، له حضارته وعلومه وإدارته. كل ذلك قام به الأمويون رغم كل ما واجههم من معوقات، وكان أهمها وأبرزها مصارعة أعداء أشداء من كل الألوان والأجناس داخلياً وخارجياً، وامتاز أعداؤهم بالحقد الشديد، حيث لم يدعوا فرصة للثورة عليهم إلا وانتهزوها، فجعلوا الدولة تعيش معظم أيامها في صراع داخلي، فلا تكاد تتغلب على عدو، حتى يبرز لها عدو آخر⁽³⁾.

(1) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، مرجع سابق، 78-80.

(2) البعلبكي، منير وآخرون، (1999): "المصور في التاريخ: حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى"، ط 19، الجزء (9)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 355.

(3) النجار، محمد الطيب، الدولة الأموية في المشرق، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، مصر، ص 85.

امتلك بعض الأحزاب والثورات الطابع العقدي، كالخوارج والشيعة الذين اتخذوا من الدين سناً لمحاربة بني أمية، بالإضافة إلى حركة عبدالله بن الزبير في المدينة حيث كان يرى نفسه أحق بالخلافة من الأمويين في عهد يزيد بن معاوية، وكالمختار بن أبي عبيد الثقفي، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ويزيد ابن المهلب. ثم إن هناك عنصراً آخر ناصب الدولة الأموية العداً وهم الموالي؛ ويقصد بهم: المسلمون من غير العرب، وبخاصة من الفرس، وهؤلاء لم يظهروا كحزب معارض له كيانه واستقلاله، لكنهم كانوا ينضمون للأحزاب المعارضة للدولة، والخارجة على سياستها، ويرون في ذلك متفصلاً لهم، وسبيلاً إلى تحقيق آمالهم في إضعاف الكيان العربي ومحاولة القضاء عليه⁽¹⁾.

استدعت الفتوحات الإسلامية الواسعة في عهد الأمويين نظر كثير من الباحثين والدارسين؛ لأنه يُعدُّ عصر الفتوحات الذهبي، حيث كان لتلك الفتوحات الواسعة أكبر الأثر في زيادة قوتهم في بداية العصر، لكنها أسهمت في سقوطهم بسبب ضعف خلفائهم، وفقدان سيطرتهم على تلك المساحات الشاسعة التي قاموا بافتتاحها في الوقت الذي خرج فيه العباسيون عليهم، وضمت هذه الفتوحات مناطق في آسيا كأقاليم ما وراء النهر، وهي المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، وإقليم السند، بالإضافة إلى تثبيت الفتح في المناطق التي كانت قد افتتحت في عهد الخلفاء الراشدين، وبصفة خاصة في فارس فقد كانت خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان وإرمينية وأذربيجان كثيرة الانتقاض والارتداد، فأبلى الأمويون بلاءً حسناً في تثبيت دعائم الإسلام فيها حتى أصبحت من أهم ركائز العالم الإسلامي، وفي إفريقيا افتتح الأمويون شمال القارة بأكمله من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي، وفي أوروبا افتتحو جزيرة أيبيريا (الأندلس)، وأجزاء من جنوب فرنسا، كما استولوا على العديد من الجزر في شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط، ثم واصلوا ضغوطهم على (القسطنطينية) عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرة وحاولوا الاستيلاء عليها. وإن كانت محاولاتهم لم تنجح في إسقاطها، إلا أنهم نجحوا في جعل الدولة البيزنطية تعيش في حالة دفاع دائم عن النفس، وهذا مكسب سياسي وعسكري ونفسي كبير بالنسبة للمسلمين، ولم تكن هذه الفتوحات مجرد فتوحات عسكرية لاستغلال الشعوب على نسق الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث، وإنما كانت فتوحاً دينية ولغوية وثقافية. وكما تجلّت عبقرية الأمويين في الغزو والفتح، فقد كانت عبقريتهم في الإدارة والتنظيم والتقريب بين الشعوب التي دخلت في حوزة الإسلام أعظم، فبفضل السياسة المرنة والأفق الواسع الذي تمتع به بعض الخلفاء الأمويين انصهرت شعوب البلاد المفتوحة، من إيرانيين وأتراك وأرمن وأكراد وبربر في بوتقة الإسلام، لتشكل عالماً إسلامياً واحداً، وبفضل مثابرتهم وجهادهم مهدوا الطريق في هذه البلاد لانتشار الإسلام.

(1) النجار، محمد الطيب، مرجع سابق، ص 86.

لقد شغلت الفتن والحروب الداخلية مع الخوارج والشيعية المسلمين عن مواصلة الفتوحات في الخارج. وكان أقل الخلفاء الأمويين حظاً من الفتوحات الإسلامية معاوية بن أبي سفيان رغم أنه حكم ما يقارب من عشرين عاماً، حيث إنَّ عهده لم يشهد فتوحات مثيرة، ولم تتم فيه إضافة مساحات كبيرة إلى رقعة الدولة الإسلامية، التي ورثها عن الخلفاء الراشدين⁽¹⁾. لقد كان الأمويون أصحاب أحلام كبيرة، وأفكار إصلاحية نيرة، وكانوا رجال دولة من الطراز الأول. وقد كان العرب في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي يعدّون كل حدّ وصلوا إليه بداية لانطلاقة جديدة حتى أدركوا أعماق فرنسا وسويسرا من جهة وأطراف تركستان، واحتضنوا حوض السند من جهة أخرى. وتطابقت ثلاثة مفاهيم بعضها فوق بعض، فالدولة الأموية هي نفسها الخلافة الإسلامية، وهي ذاتها دار الإسلام. وهذه الدولة الأموية هي الدولة الكبرى والأولى والوحيدة في العالم التي شهدت أحداثاً جليلة عملاقة وفتوحات كثيرة: منها فتح قتيبة بن مسلم لبخارى وسمرقند وبسط السيادة الإسلامية على آسيا الوسطى (705م) وإتمام الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا وأول نزول للمسلمين بإسبانيا في حملة طريف (710م) ثم افتتاح الأندلس وبداية أذكى وأثرى حضارة في البحر الأبيض المتوسط على يد طارق بن زياد (711م)، بتوجيه وإشراف القائد الكبير موسى بن نصير والي أفريقية للوليد بن عبد الملك، ولم يقتصر موسى على هذه الفتوحات البرية، بل عمل على تقوية أسطوله لضرب القواعد البحرية البيزنطية في جزر البحر الأبيض المتوسط، مثل: صقلية وسردانيا وقورسيقا وجزر البليار، فشل بذلك حركة الأسطول البيزنطي⁽²⁾. وفي عهد الدولة الأموية، وصلت سفن المسلمين إلى الصين، حيث أجرى القائد العسكري قتيبة بن مسلم الباهلي مفاوضات مع إمبراطور الصين للدخول إلى بلاده سلماً وبدون قتال.

علاوة على ذلك، فقد كان هنالك ما يُسمّى بـ(حروب الشواتي والصوائف) التي سنّها معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه، بعد أن استقرت خلافته، وسار عليها من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، بل وقاموا بتفعيلها بما يتجاوز العهد السابق، وحرب الشواتي والصوائف هي تلك الغزوات الجهادية المتواصلة التي شنّها المسلمون ضد الإمبراطورية البيزنطية دفاعاً عن حدود العالم الإسلامي، وتصدياً للمحاولات البيزنطية الهادفة إلى استعادة الشام، وتعزيزاً لمكانة الإسلام، ومحاولة لتقويض أركان هذه الإمبراطورية المعادية للإسلام وأهله، والتي تحصنت

(1) عبداللطيف، عبدالشافى محمد، العالم الإسلامي في العصر الأموي 41هـ - 132هـ: دراسة سياسية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص 209.

(2) المرجع نفسه، ص 113-115.

بالموقع الفريد لعاصمتها القسطنطينية، وبيعض الثغور التي بقيت لها بمنزلة الخط الدفاعي في آسيا الصغرى، حيث نشبت مواجهة طويلة وصعبة مع الأمويين الذين كان فتح العاصمة البيزنطية أحد أبرز الأهداف العسكرية لمعظم خلفائهم؛ أملاً في أن تتحقق البشارة النبوية بفتح هذه المدينة على أيديهم⁽¹⁾، لقول الرسول -ﷺ- سُنْفُوحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَسُنْفُوحُ رُومَا فَنِعْمَ الْقَائِدُ قَائِدُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ. وقد بلغت الغزوات في عهد معاوية اثنتي عشرة شاتية وثلاث صوائف، عدا غزوات لم تتدرج في هذه أو تلك منها غزوة يزيد بن معاوية للقسطنطينية سنة (49هـ) على سبيل المثال، وهي من أكبر وأجراً الحملات التي قام بها المسلمون ضد أهل القسطنطينية، وشارك فيها الصحابي الشهير أبو أيوب الأنصاري، وأبناء الصحابة: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير. وهناك عشرات الغزوات التي حدثت في عهد خلفاء بني مروان ما بين شواتي وصوائف وغزوات أخرى شملت الثغور البرية والبحرية للدولة البيزنطية، وتحققت خلالها أعظم الانتصارات، وأفرزت أعظم القادة المسلمين الذين ارتبطت هذه الجبهة بأسمائهم، فضلاً عن قطع أمل الإمبراطورية البيزنطية نهائياً في إمكانية العودة إلى الشام (بقرتها الحلوب السابقة). وقد استمرت هذه الغزوات من عام (45هـ) حتى أواخر عشرينيات القرن الثاني للهجرة، أي حتى قبيل سقوط الدولة الأموية بعامين أو ثلاثة. وتجدر الإشارة إلى أن أبناء الأسرة الحاكمة الأموية، كانوا على رأس كثير من هذه الغزوات، وقد عرفنا منهم على الجبهة البيزنطية: محمد بن مروان الذي عرف بـ (قائد الصوائف)، وابنه عبد الله بن محمد بن مروان. وعرفنا من أبناء عبد الملك: مسلمة بن عبد الملك الذي اقترنت باسمه معظم الحملات في عهد أخيه الوليد وما بعده، وهو أعظم القادة الذين عرفتهم هذه الجبهة من غير منازع. وعرفنا من أبناء الخليفة الوليد بن عبد الملك: العباس بن الوليد، وعبد العزيز بن الوليد، وعمر بن الوليد، ومروان بن الوليد، وبشر بن الوليد. وعرفنا من أبناء الخليفة سليمان بن عبد الملك: داود بن سليمان. ومن أبناء الخليفة هشام بن عبد الملك: معاوية بن هشام، وإبراهيم بن هشام، وسعيد بن هشام، وسليمان بن هشام، ومسلمة بن هشام. وعرفنا من أبناء يزيد بن عبد الملك: النعمان بن يزيد. فهؤلاء كانوا يتناوبون في الخروج مع مسلمة بن عبد الملك أو يتولون قيادة الجيوش والخروج إلى الغزو بأنفسهم، سواء في ظل خلافة آبائهم أو إخوانهم أو أعمامهم، إضافة إلى العديد من القادة من أبناء عمومتهم من البيت الأموي، والقادة الآخرين من بقية المسلمين⁽²⁾.

(1) عبداللطيف، عبدالشافى محمد، مرجع سابق، ص 219.

(2) المرجع نفسه، ص 223.

أنواع الخطابة في العصر الأموي

الخُطْبُ ضروب وأنواع؛ فمنها: الخطب السياسية، ومنها: الخطب الحربية، ومنها: الخطب الاجتماعية، ومنها الخطب العلمية، وهناك خُطْب الملوك والرؤساء والوزراء ونوَّاب الشعب، وهناك خطب القادة العسكريين في جنودهم، وهناك خطب الزواج والتأبين، والصلح والتهنئة، وهناك خطب استقبال الطلاب في أول عهدهم بمعاهدهم، وخطب توديع الخريجين منها، وهناك خطبة الصباح في المدرسة. فالناس لا يستطيعون الاستغناء عن الخطابة؛ لأنها مظهر من مظاهر التواصل: تواصل المشاهدة والسماع، وتواصل الآراء على السواء، ومن طبيعة البشر أن يحاول كل منهم استمالة الآخرين إلى رأيه وموقفه، والخطابة إحدى الوسائل التي يُمكن أن تتمَّ بها تلك الاستمالة؛ ولهذا السبب نجد أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات من ذلك الفن، وإن كان يمر بفترات ازدهار وفترات ركود، طبقاً للظروف التي تحيط بالجماعة البشرية، فإذا كانت هناك حرية رأي وتجمُّع، ووعي ثقافي وسياسي، ازدهرت الخطابة، بخلاف ما لو ساد الاستبداد، ولم يكن الشعب واعياً بحقوقه، ولا معنياً بترقية أحواله، فإنها تَرُكَّد حينئذ.

الخطابة السياسية والحربية

تمتلك الخطابة السياسية أهمية عظيمة وأثراً كبيراً في التاريخ العربي، ولا يمكن للخطابة السياسية أن تزدهر في ظل نظام قمعي، بل تغيب أو تتدهور في البلدان التي تحكم بالقوة، وتُعرَّف الخطابة السياسية بأنها كلام شفاهي يلقيه ساسة أمام جمهور، ويتناولون فيه أمور الحكم وقضاياها. وتعد الخطبة السياسية وسيلة من وسائل التواصل بين النخب السياسية والشعب، وبين النخب السياسية فيما بينها. وظلت تمثل وما زالت الأداة المثلى للتأثير في الجماهير وحشدهم في أوقات السلم والحرب على مدار آلاف السنين. لكن تاريخ البشرية احتفى بقوة السيف أكثر مما احتفى بقوة الكلمة مما سبب غياب الخطابة السياسية أو تدهورها في أنظمة الحكم التي تحصل على السلطة بحد السيف، وتستخدم البطش والقهر للاحتفاظ بها⁽¹⁾.

تعد الأحداث السياسية والاجتماعية التي يحفل بها أي عصر من العصور، من أبرز العوامل المؤثرة في الأدب عامة، وفي فن الخطابة خاصة، ويعجُّ التاريخ العربي وبخاصة ما ورد إلينا منه بعد الإسلام- بالأحداث والصراعات بين الفرق والأحزاب السياسية من جهة

(1) محفوظ، الشيخ علي، فن الخطابة واعداد الخطيب، ص85

وبين الولاية والحكام وأصحابهم، وكان خلافهم إما حول زعامة أو خلافة. ويعد العصر الأموي من أكثر العصور التي سجلت صراعا حربيًا لسانياً لم تهدأ ثأثرته طوال هذا العصر. وكان النزاع القبلي صورة من صور هذا النزاع السياسي. وأيضاً الصراع بين العرب والعجم كان لونا آخر من النزاعات في هذا العصر، وجرّاء هذه الأحداث ازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً لم تحظ به في أي عصر آخر؛ إذ إنها كانت بمنزلة أحد الأسلحة الماضية الفتاكة التي استخدمت إبان هذه الصراعات السياسية العنيفة؛ فإذا اضطربت أمة لتغيير سياستها أو تبديل دينها أو إصلاح نظام اجتماعي من نظمها، بعث الله فيها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون إلى التجديد، ويكشفون عن مزاياه، ويزعزون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوّضوه⁽¹⁾.

تكاملت في العصر الأموي عوامل ازدهار الخطابة السياسية والحربية، فتنشعبت معانيها لتعبّر عن آراء الفرق والأحزاب في أحقية الخلافة، والحض على الجهاد، أو لتناقش شؤون الأمة الداخلية والخارجية. كذلك كثرت المناظرات السياسية بين الحكّام والخلفاء الأمويين وزعماء تلك الأحزاب والفرق، وكان على الأمويين أن يدافعوا عن حقهم في الخلافة ويطالبوا الرعية بالطاعة والولاء ملوّحين بالتهديد والترهيب تارة وبالتحبيب والترغيب تارة أخرى. كذلك كان عليهم أن يتصدوا للمعارضين، كما كان عليهم ألا ينسوا واجبهم في نشر الإسلام واستئثاره الهمم والحض على الجهاد في سبيل الله. ومثال ذلك ما ورد في خطبة معاوية بن أبي سفيان التي تعد من الخطب السياسية البحتة في أهل المدينة، التي قال فيها: "يا أهل المدينة، إني لست أحبُّ أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه، كل امرئ منهم شيعته نفسه، فاقبلونا بما فينا؛ فإن ما وراءنا شرٌّ لكم، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت، ولو قد أتى فالرثقُ خير من الفثق، وفي كلِّ بلاغ، ولا مقام على الرزية". وقال: "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنتُ إذا مدُّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها". وكتب إلى زياد (أحد عمّاله): "إنه لا ينبغي لنا أن نَسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً؛ فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعاً؛ فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكونُ أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرفقة والرحمة"⁽²⁾.

(1) الحوفي، أحمد محمد، فن الخطابة، مرجع سابق، ص22.

(2) ابن عبد ربه، أبو عمرو أحمد بن محمد الأندلسي، (1962). العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم البياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط(2)، ج4، القاهرة، ص171.

وتتضح في الخطب التي صدرت عن معاوية أنه يتعامل مع الناس بمرونة فبدأ خطبته بتهديد مبطن، وتخويف بما وراء الأمويين من ويل، وهو في الوقت نفسه يجذب انتباه الناس إلى أنّ الصواب كان بتولية معاوية الخلافة، وأنّ الخطأ هو خلاف ذلك. وفي هذه الخطبة صور فنية، كقوله: "فالرتق خير من الفتق" والرتق هو خياطة الشقوق، أما الفتق فهو الشق نفسه. ومن خطب عبد الملك بن مروان بعد مقتل ابن الزبير في المدينة، عام (75هـ) فقال: "أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المدهن (يعني معاوية)، ولا الخليفة المأفون^(*) (يعني يزيد)، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، ألا وإنا نُحِلُّ لكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصب راية، والله لا يفعل أحد فعلة إلا جعلتها في عنقه، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه"⁽¹⁾. وهنا نلاحظ نفي عبد الملك لأن يكون عثمان المستضعف أو معاوية المدهن أو يزيد المأفون.

أما الفرق المعارضة لحكم بني أمية - من خوارج وشيعة وزبيريين - فكان عليها أن تقدم المفوهين من الخطباء الذين ينافحون عن آرائهم، ويدحضون حجج خصومهم ويقنعون الناس بالأسس والمبادئ التي يدعون إليها، ويحرضون أنصارهم على قتال بني أمية والجهاد في سبيل إعادة الحق إلى نصابه، وكل يقدر الحق في جانبه والقتال لإعادته جهاداً في سبيل الله من وجهة نظرهم، وما أن نبلغ نهاية العصر الأموي حتى تكون معاني الخطابة الحربية والسياسية قد تبلورت حول الحض على الجهاد أو شرح سياسة الخليفة أو الحاكم، والمشاورات السياسية والحربية، والمناظرات بين الفرق والأحزاب والحزب الحاكم، والوصايا ووضع الخطط السياسية والحربية عند تجهيز الجيوش وعقد الألوية. ومع بقاء مبررات ودواعي الخطابة السياسية والحربية استمرت تلك الأغراض بقوتها وازدهارها مع كثير من التوسع في المعاني الخطابية بصفة عامة في العصر العباسي الأول. وحينما أسند الأمر إلى غير أهله، بدأ الضعف يتسرّب إلى الخطابة بصفة عامة وذلك في العصور العباسية المتأخرة.

* مأفون: اسم مفعول من أفن، وتعني ناقص العقل، ضعيف الرأي لا تصدر عنه حكمة ولا واقعية ولا حزم، غبي، ويقال: رجل مأفون: مُصاب بنوع من أنواع التخلف العقلي.
(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص178.

إن كل حزب أو تيار سياسي، يتخذ الخطابة وسيلة لنقد خصومه وبيان نظريته السياسية واستمالة الناس إليها، وكذلك كان يصنع الثائرون على بني أمية من أمثال يزيد بن المهلب في تأليب الناس على التصدي لهم والتمرد عليهم، وكأنما قامت عندهم جميعاً بما يقوم به الإعلام المرئي والمسموع والمقروء في عصرنا من الدعاية للآراء السياسية، فانبرى خطباء كل حزب يدعون إلى نظرية حزبهم وبيان أنهم على الحق وخصومهم على الباطل، فهم الجديرون بأن يعتنق الناس مبادئهم ويذودوا عنها.

كان الشيعة -أنصار علي- يصفون حكام بني أمية وخاصة يزيد، بجورهم في الأحكام وتعطيلهم حدود الله، ويسلقونهم بالسنة حداد، وقد يضيفون إلى ذلك مواضع تصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى، ومن خطباء الخوارج المشهورين: قطري بن الفجاءة. وتحفظ كتب الأدب له بموعظة رائعة، حيث سعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة - وهو من منابر بني مازن بن عمرو بن تميم - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وغمرت بالأمال، وتحلّت بالأمانى وزينت بالغرور، لا تدوم حسرتها، ولا تؤمن فجعتها؛ غدارة ضرارة، وحائلة زائلة، ونافذة بائدة؛ لا تعدو - إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها - أن تكون كما قال الله عز وجل: ﴿كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلِّ

شَيْءٍ مُّؤَمَّرًا﴾⁽¹⁾، وكذلك زيد بن جندب خطيب الأزارقة وابن صديقة وكان صوفياً ناسكاً وشيئلاً بن عزرة الضبّعي وعمران بن حطّان وحبیب بن خُدرة الهاللي والمُفْعَطَل وعبيدة بن هلال الشكري. ومنهم الضحاك بن قيس ونصر بن ملحان وعبدالله بن يحيى طالب الحق والطّرمّاح. ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج ومن أشهرهم: الحسين بن علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وزيد بن علي والمختار الثقفي وسليمان بن صُرد وعبدالله بن مطيع وعبيدالله المرّي. ومنهم أيضاً بنو صوحان: صعصعة وزيد وسيحان، وكانوا يكثرون من القدر في بني أمية وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة النبوة وحملة الرسالة القدسية الهادين المهديين والأئمة المنتظرين. وكذلك الزبيريون رغم أن مدة عبدالله بن الزبير لم تطل، ومع ذلك فقد ملأ دفاتر العلماء كلاماً، وكان أخوه مصعب واليه على العراق خطيباً مفوهاً وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية. وكان حول ابن الأشعث كثير من الخطباء، كما كان يزيد بن المهلب خطيباً مفوهاً، وقد روى الجاحظ بعض خطبه.

(1) سورة الكهف: الآية ٤٥.

وفي الصف المقابل لخطباء الأحزاب والثورات كان يقف خطباء بني أمية يدعون الناس إلى التمسك بحبل الجماعة وتأييد الأمويين في حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء، وكثيراً ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب. وقد يشيرون إلى مقتل عثمان وأن الأمويين أولياء دمه وورثة خلافته، ولهم مواعظ لا نشك في أنهم قالوها في صلاة الجمعة والعديد ككثير مما روي عن زياد والحجاج، وعن بعض خلفائهم وخاصة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد المشهور، وأكثر خلفائهم كان خطيباً، ولهم خطب تدور في كتب الأدب والتاريخ، ومن خطبائهم بجانب من قدمنا عتبة بن أبي سفيان والي معاوية على مصر وعبيدالله بن زياد وخالد بن عبدالله القسري ويوسف بن عمر النقي وسعيد بن العاص وابنه عمرو الأشدق، ومن قوادهم الخطباء موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان افتتحا الأندلس وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار فاتح التركستان. وعلى هذا النحو كان لكل حزب سياسي خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه. وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية في هذا العصر نهضة واسعة، ولعل هذه النهضة هي التي جعلت المؤرخين يعرضون علينا الآراء السياسية أو المذهبية لزعماء هذا العصر في شكل خطب، على نحو ما نجد في الطبري وابن الأثير، فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين بن علي أو لحفيده زيد، أو لأي داعية شيعي، أو خارجي، أو أي ثائر زبيرى وغير زبيرى، أو لأي وال أموي، أو قائد يقود الجيوش عرضه في صورة خطبة، فهم لا يقولون إن فلاناً كان يرى كذا أو كذا، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا؛ لأنهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه في شكل حديث بل لابد أن يعرضه في شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب.

ولطالما استمد السيف إلى بطشه وفعله قوة من الخطابة تزيده مضاء، وكثيراً ما لجأ القادة إلى الكلمة يشعلون بها حماسة الجنود للاستبسال. كما كان الخطباء يشدون أزر الجيش المقاتل بما يلقون من خطب، ويوقدون حماسة الجمهور ليجود بالدماء والأموال. فلئن كانت الخطب السابقة محلاً للتحضير والتفكير والتروي، فإن الخطابة الحربية كثيراً ما تقال لوقتها، إذ يفجأ الزمن القائد، فينتزع من بديهته المسعفة خطبة مرتجلة، على أنه أحياناً يعدّها لظرف يتوقعه، فمهمته شاقة؛ لأنه لا يستطيع أن يسمع الجيش كله، ولذلك جرت العادة الآن أن تكتب الخطبة، وتوزع على الجند، والغرض منها بعث العزيمة في نفوسهم، وإذكاء حماساتهم وتبشيرهم بالنصر، وبث الثقة، وتهوين الموت. والقائد يتخير الجمل القوية القصيرة، ويلجأ إلى الخيال كثيراً يستثير به عظمة الماضي والأمل في الحاضر، ويؤمن بالفوز والمجد، ويُفّر من التخاذل والانكسار⁽¹⁾.

(1) الأحمد، عبدالرحمن، (2004). البيان الزاهر إلى فرسان المنابر، ط (2)، مركز السعيد، حمص، سورية، ص 103.

وقد أثار عن العرب والمسلمين وغيرهم فيض من هذه الخطب، منها خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني في موقعة ذي قار، يحرض قومه على الفرس: "يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر؛ المنية ولا الدنية؛ استقبال الموت خير من استدباره؛ الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد". ومن أعظم الخطب الحربية الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد قبل فتح الأندلس: "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أرباً فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأزارقة الألدّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي"⁽¹⁾، وهذه الخطبة ثرية بخصائص الخطابة الحربية، من ناحية التعبير والتصوير والاستمالة، وفيها تحفيز للعزائم بوسائل شتى، وتبشير بالنصر والغنائم، ودعوة إلى الجهاد ابتغاء الثواب.

مما سبق نجد أنّ كثرة الفرق والمذاهب السياسية، واختلاف آرائها عمل على ازدهار الخطابة السياسية في العصر الأموي، كذلك أدى هذا الاختلاف إلى نشوء النزاعات والحروب فيما بينها، مما أدى إلى استخدام أسلوب الخطابة الحربية، ولذلك يعد عصر الأمويين من أكثر العصور زاداً للخطابة السياسية والحربية. وما أحوجنا اليوم إلى الرجوع إلى العصر الأموي لمشابهته لعصرنا في التنافس السياسي وتعدد الأحزاب السياسية والخطابة في تراجع وتقهر ولم تتطور بعد، وذلك من باب الاقتداء بالمثل العليا كأمثال خطباء العصر الأموي بعد الرسول ﷺ - وخطباء صدر الإسلام لما لها من شعاع ودور وتوجيه في حياة الأمة من على المنابر بخطب الجمعة والعيدين وعرفة والاستسقاء والمقابر بخطب الوفاة والتأبين.

(1) المقرئ، أحمد بن محمد، (1988). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 240-241.

الخطابة الدينية

اعتنى الإسلام بالخطابة وأعلى من قدرها فجعلها ركناً في صلاة الجمعة لا تصح إلا به، ورفع من قدر صلاة الجمعة وثوابها؛ لأنها توحد بين المسلمين وتجمع أخوتهم، وتذكرهم بما فيه خيرهم وتحذرهم مما فيه شرهم من خلال موعظتها الأسبوعية. وكذلك في صلوات العيدين والكسوف والخسوف والاستسقاء. والخطابة معلم مهم في مناسك الحج عندما يجمع المسلمون الظهر والعصر قصراً في عرفات اقتداء برسول الله ﷺ الذي ألقى خطبة الوداع لتكون منهجاً وسلوكاً ينير طريق المسلمين في حياتهم من بعده، والتزم الخلفاء والأمراء بالخطابة بعد بيعته. والخطابة الدينية نتاج أدبي رائع له وزنه وقيمه الخالدة لا شتماله على شريف المعاني والأفكار، وتدفع العواطف وصدقها وتخير الألفاظ وجمالها، مما يرفع من قدره ويعلي من شأنه في الحاضر والمستقبل، ولذلك جعل الإسلام للخطابة أهمية في انتشار البشيرة من ضعفها أمام الماديات وتذكيرها بالباقيات الصالحات والمثل العليا التي ترفع هَمَّ الأمة وتسمو بها إلى ما فيه تطوير الحياة وازدهارها ولذلك قيل: "الأدب والفن المنبثق من التصور الإسلامي أدب وفن موجه بحكم أن الإسلام حركة تطوير مستمر للحياة"⁽¹⁾؛ ولأنها مرتبطة بالقرآن الكريم الذي يصلح كل زمان ومكان. وهُنَا تجدر الإشارة إلى أنَّ المعتقدات السياسية لكثير من الخطباء كان لها أثر كبير في تحديد شكل الخطبة الدينية وهويتها ومضامينها.

أسهمت عدة عوامل في ازدهار الخطابة الدينية عند الأمويين من أبرزها ظهور الفرق الدينية المتعددة، وبالتالي ظهور الخطباء لهذه الفرق، كل منهم يدعو بطريقته إلى مذهبه، ساعياً لإقناع العامة بما يرمي إليه. كذلك حفل العصر الأموي بإقامة مجالس المناظرات الخطابية بين الخطباء والوعاظ، ليظهر كل منهم مهارته في هذا اللون من الخطابة، وبرزت نزعة الزهد وأثرت في نشاط حركة الوعظ والهداية. وكان من الوعاظ فئة عُرفت بـ"القصاص". وأما الموضوعات والمحاور التي كانت تدور حولها الخطب الدينية في العصر الأموي فهي: الوعظ الديني، والقصاص الديني، والمناظرات الدينية التي كانت تقام بين أتباع الفرق الدينية والمذاهب الكلامية ومقامات الوعاظ والقصاص⁽²⁾، وسنقوم هنا بتحليل كيفية ازدهار هذه الجوانب والموضوعات في العصر الأموي:

(1) قطب، سيد، (1990). النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط(6)، دار الشروق، القاهرة، مصر، ص100.
(2) بني خالد، عادل سلامة خلف، (2002). الخطابة العربية في العصر الأموي: دراسة نصية أسلوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ص19.

أولاً: الوعظ الديني: أخذت الخطابة الدينية في العصر الأموي مساراً لم تشهده في العصر الإسلامي الأول؛ أي صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين، حيث كثرت في العصر الأموي المذاهب والفرق الدينية المختلفة، مما أخرج الخطابة الدينية من إطارها الذي وجدت لأجله - وهو الدعوة إلى الإسلام- لتصبح موجهة إلى الناس، دعوة من الخطيب، لفهم مغزى الاختلاف الذي نشأ بين فرقته التي ينتمي إليها فكرياً ودينياً، وبين الفرق الأخرى. إلا أنه بقي من الخطابة الدينية الصريحة ما يبثه الخطباء على المنابر من خطب دينية موجهة إلى الرعية يرتبط بعض منها بأعياد المسلمين وجمعهم، وكذلك خطب الوعظ والإرشاد والزهاد، وهي الخطابة التي نستطيع أن تعدّها امتداداً للسلوك الخطابي الذي اتبعه خطيب الأمة الأول سيدنا محمد -ﷺ-، ومن تبعه من الخلفاء الراشدين والصحابة المرّضيين، بعيداً عن ضجيج السياسة، وزحام المصالح الكبرى التي شغلت الناس، ووزعتهم فرقا وأحزاباً متناحرة يكفر بعضها الآخر. ويظهر من خلفاء الدولة الأموية الذين تمسكوا بهذا الأسلوب الخطابي، وشجعوا على أن تقتصر الخطابة على الزهد والوعظ والإرشاد، عمر بن عبدالعزيز بما عرف عنه من زهد وورع وتقوى، ومن أبرز الخطباء (الوعاظ) في هذا العصر (عصر بني أمية) الحسن البصري. ومن أهم أصناف خطب الوعظ والإرشاد في العصر الأموي ما يلي:

- **خطبة الجمعة:** وتتوب هذه الخطبة عن نصف الفرض، وتحل محل ركعتين في صلاة الظهر من يوم الجمعة. ولهذه الخطبة مكانة ومقام عظيم لدى المسلمين، وهي ركن من أركان الحق، وشعيرة من شعائر الهدى، ومنبر للتوجيه والإصلاح⁽¹⁾، ولأهميتها جعلها الرسول ﷺ قبل الصلاة علماً بأنها كانت مشابهة لصلاة العيد والاستسقاء، وفي عام الفجر نادى التاجر من خارج المسجد إلى التجارة والبيع والشراء فتركوا الصحابة الرسول ﷺ يخطب وخرجوا إليه، وبعد هذه الحادثة أنزل الله قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، لأنها جزء رئيس من صلاة الجمعة، وينبغي على الخطيب البارح اختيار الموضوع وجمع المادة العلمية باختيار الآيات المناسبة والاطلاع على تفسيرها والأحاديث الشريفة وتخرجها والاستشهاد بالأشعار والحكم والأمثال⁽³⁾.

(1) عيسى، عبد الرحمن، (1995). أدب الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية، ط(1)، دار الإيمان، بيروت، لبنان، ص18.

(2) سورة الجمعة، الآية (9).

(3) وزارة الاوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية، (2016). إعداد الخطبة نصائح وارشادات، منشور.

– **خطب العيدين:** تشبه خطب الأعياد في مضمونها خطبة صلاة الجمعة، فالفكرة العامة تدور حول الوعظ والتذكير والحث على طاعة الله وخشيته، واجتتاب معاصيه، وهي عبارة عن وصايا هامة جداً للمسلمين.

– **خطب الاستسقاء:** يلقي هذا النوع من الخطب الدينية عند انقطاع الغيث وحلول الجذب، ولا يجد الناس سبيلاً سوى الخروج إلى صلاة الاستسقاء والتضرع لله عز وجل، ويقلب كل واحد منهم رداءه تأملاً بتغيير حاله من الجذب إلى الخير والأمطار.

ثانياً: القصص الديني: للقصّة في الخطابة فوائدٌ جمّة، ولها أثرها في التذكرة والتوعية والإرشاد، فهي قد تُغني عن الكثير من الكلام والحديث، ومن أجل ذلك نجد عناية القرآن بالقصة؛ حيث تنوّعت في مواضيعها، واختلّفت في طولها وقصرها، وتكرّرت بأساليب متنوعة ومختلفة، وتأثرت بالقرآن الكريم لما فيه من قصص متتالية.

ثالثاً: المناظرات الدينية: من ألوان الخطابة الدينية الخطب المتصلة بعقائد المتكلمين، وقد شهد العصر الأموي ظهور أوائل الفرق الكلامية: المرجئة والقدرية والمعتزلة والجبرية والموالي، وكان لكل من هذه الفرق دعائها الذين يروجون لعقائدها ويجادلون خصومها، وكثيراً ما كانت المناظرات تقوم بين هؤلاء، كلٌ يدلي بحجته وأدلتها، فارتقى بذلك فن المناظرة، وهو فن لم يعرفه العرب قبل. وفي حين أن ضروب الخطابة الأخرى كان قوامها العناصر العاطفية فإن قوام المناظرات العناصر العقلية المنطقية، وقد بلغ هذا الفن أوجّه في العصر العباسي.

والخطابة لها الحظّ الأوفر من أمر الدّين؛ لأنّ الخطبة شطْرُ الصلاة التي هي عمادُ الدّين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتملُ على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهج بها الإمام رعيته، وهذا ديدن الخطباء لإيصال ما أنزل الله - عزّ وجل - إلى قلوب الناس، وهي أعظم منافع الخطب⁽¹⁾.

الخطابة الاجتماعية

تلقى الخطابة الاجتماعية في الأماكن العامة وفي المواسم والمحافل وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء، وفي الأندية العامة أو الخاصة؛ لتؤدّي غرضاً من الأغراض التي تتعلق بالحياة ومظاهرها الاجتماعية، وإذا كانت هذه الخطب تعبّر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلق بأحوال المجتمع فإنها لا تقتصر على موضوع واحد، وإذا كان من الطبيعي أن توجد كل أشكال الخطابة الاجتماعية في العصر الجاهلي وتعبّر عن كل مناسبات الجاهليين بكل أشكالها - فإنه من الطبيعي أيضاً أن تنشط مع نشاط الحياة الاجتماعية في العصور الإسلامية، وقد تعددت مضامينها تبعاً للظروف والمناسبات الداعية إليها، ومن هذه المضامين التي سنتناولها⁽²⁾:

(1) عبد الخالق، غسان، (2015). النقد العربي القديم نصوص نقدية مختارة (قراءات تطبيقية مساندة، جامعة فيلادلفيا، عمّان.

(2) اللهبي، حسين عبد العالي، (2008). الخطابة العربية في العصر العباسي الأول: دراسة موضوعية فنية، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (3، 4)، المجلد (7)، جامعة الكوفة، ص96.

– **خطب المحافل والوفود:** وهي الخطب التي كانت تُلقى في المحافل الأدبية، وبين أيدي الحكام والولاة والخلفاء، وفيها يتكلم الخطيب عن الشؤون العامة وأحوال المجتمع وحاجاته، أو يتكلم عن شؤون خاصة بقومه، أو يمدح فيها السلطان لغاية رفعة المكانة عنده أو لغاية منحه الأعطيات. وهي في هذه الأحوال لا تخرج عن نطاق معانيها الفاخرة أو التظلم والشكوى أو الشفاعة والاستعطاف، أو الشكر وإعلان الولاء والتهنئة أو التعزية والتأبين، وورد في كتب التاريخ الكثير عن محافل العرب ووفادتهم في العصر الجاهلي وخصوصاً على ذوي النفوذ والرئاسة، ونقلت إلينا صورة واضحة عن المعاني التي دارت حولها الخطب الاجتماعية، كما جرت مثل هذه المحافل في العصر الإسلامي، وتتالت الوفادات على النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى خلفائه الأبرار -رضوان الله عليهم- وركزت تلك الخطب على معاني المفاخرة، وإعلان الولاء والطاعة والدخول في الإسلام، أو طلب العفو والمصالحة والتهنئة أو التعزية أو الاستمناح والاستجداء، وقد سميت قديماً بخطب (بين السماطين*) أو (خطب المقامات)⁽¹⁾.

ازدهرت الخطابة الاجتماعية في العصر الأموي وتوسعت معانيها، حيث ظهر الخطيب المصنّف تلو الخطيب، وبرع الخطباء المسلمون في الجَمْع ما بين التهنئة والتعزية، وأجادوا في الشكوى من سوء الحال، ووصف الديار وما حل بها، مع كثير من أساليب الاستمناح والاستجداء. كذلك الافتتان في العتاب والاعتذار، ومقدرتهم الفائقة على الاستعطاف والاسترحام واستلال سخائم النفوس، خاصة ما قيل بين أيدي الحكام والخلفاء في أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي، فضلاً عن كثرة ما قيل في محافلهم من خطب، كثناء الشهداء، ومدح الأبطال والنجباء وتهنئتهم بالفتوح والانتصارات، وتخاصمهم ومناظراتهم بين أيدي الخلفاء والولاة، إلى غير ذلك من ألوان الخطب المتصلة بنواحي الحياة الاجتماعية. ويعد الجمع بين التهنئة والتعزية في الخطبة من المسالك الصعبة التي يتبعها الخطباء الحفليون⁽²⁾، ومن خطب الوفود في العصر الأموي ما يُروى عن الأحنف بن قيس أنه دخل على معاوية وافداً لأهل البصرة، ودخل معه النمر بن قطبة، وعلى النمر عباءة قطوانية وعلى الأحنف مدرعة صوف وشملة، فلما مثلاً بين يدي معاوية اقتحمتها عينه فقال النمر: "يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها، فأوماً إليه

(*) **السماطين:** سميت بخطب السماطين؛ لأن الخطيب يقف بين سماطي اصقي الخليفة أو الأمير ثم يخطب.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج1، ص119.

(2) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج2، ص158.

فجلس، ثم أقبل على الأحنف فقام فقال: يا أمير المؤمنين، أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق وبلغ منه المخنق؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير، ويجبر الكسير، ويسهل العسير، ويصفح عن الذحول، ويداوي المحول، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزيل اللأواء، وإن السيد من يعم ولا يخص⁽¹⁾.

– **خطب النكاح:** تهدف خطب النكاح إلى إقناع ذوي الفتاة بمن يرغب الإصهار إليهم، ومن عيون الخطب التي وصلت في العصر الأموي إلينا خطبة الحسن البصري، حيث كان يقول في خطبة النكاح بعد أن يحمد الله ويثني عليه: "أما بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المتفرقة وجعل ذلك في سنة دينية ومنهاج واضح من أمره، وقد خطب إليكم فلان، وعليه من الله نعمة، وهو يبذل من الصّدّاق كذا، فاستخبروا الله وردوا خيرا يرحمكم الله". ويبين الحسن البصري في هذه الخطبة أهمية الخطبة والنكاح للمجتمعات ومدى الفائدة الاجتماعية والدينية التي يجنيها كل من يسير في أمر النكاح، ويعمل على تسهيله، وهو يدعو أيضاً إلى التروي والاستخارة في الرد على طلبه⁽²⁾.

– **خطبة التائبين:** تُلقى خطبة التائبين عادة في المقابر أو مجالس العزاء لمواساة ذوي الفقيد بفقيدهم، والفكرة العامة فيها هي تصوير الفاجعة التي حلت بذوي الفقيد، والإشادة بفضائله، وذكر محاسنه من باب اذكروا محاسن موتاكم، حيث إنّ مجال القول في هذا الباب واسع للخطيب المقتدر الذي يتلاعب بالألفاظ والمعاني دون أن يغرق في المبالغة، أو الإطالة والتكرار وكذلك الحث على الصبر عند مصيبة الموت المصيبة الكبرى والصابر له قصر الحمد في الجنة⁽³⁾.

(1) الأبيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح، (1986). **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق: مفيد قميحة، ط(2)، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص60.

(2) صفوت، أحمد زكي، (1974). **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، ج3، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ص346.

(3) فياض، نقولا يوسف، **فن الخطابة**، مرجع سابق، ص110.

الفصل الثاني



الأساليب الخطابية في العصر الأموي

- توطئة
- الأساليب الخطابية في العصر الأموي
- الأساليب الخطابية لدى خلفاء العصر الأموي
- الأساليب الخطابية لدى الولاة في العصر الأموي
- الأساليب الخطابية لدى الخوارج والشيعة

توطئة

يشغل التحليل الأسلوبي للخطابة، حيزاً كبيراً من دراسة بلاغة الخطابة في أدب اللغة العربية، والتي لم تُميّز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب، مثل عدم التزام الوزن أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى. وتتمثل أهمية دراسة الخصائص الأسلوبية للأدب العربي عامة وللخطابة خاصة، في أنها مُوجّهة إلى عامة الناس، وخاصة الذين يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى أساليب تهزّهم وتؤثر فيهم أكثر من حاجتهم إلى الحجة والبرهان، فلا يكفي إذاً أن يعرف المرء ما ينبغي أن يُقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي. ونستذكر هنا عبارة الإعرابي لأبي تمام -الشاعر الفيلسوف- "لمَ تقول ما لا يفهم؟ فقال: لِمَ لا تفهمون ما يُقال؟". وتختلف طرائق تجميل الأسلوب الخطابي باختلاف المقام، وحسب نوع الخطاب مكتوباً كان أم شفويّاً حوارياً، وتختلف بحسب طريقة تحضير الخطابة، ولا تعرف الخطابة شكلاً واحداً من الأساليب، وإنما يختلف أسلوبها تبعاً لتنوع الجمهور المُتلقّي، لذلك كانت الخطابة في الصّفوة من المتقّفين ذات أسلوب رفيع، وبلاغة عالية، وطريقة في العرض خاصة⁽¹⁾.

الأساليب الخطابية في العصر الأموي

ليس غريباً أن يحظى الأدب في العصر الأموي ببداية من جيّد المنظوم والمنثور سواء من كلام الطبقة العامّة أو الخاصة؛ لأن العصر الأموي أقرب العصور إلى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين علماً وأدباً وخُلُقاً واجتماعاً، فلا بد أن يكون أدباء ذلك العصر سلائل مدرسة النبوة، بل مدرسة القرآن الكريم، وبخاصة إذا كان الأديب حاكماً يَسوس المجتمع المسلم ويحكمه بشرع لا يَنزع عن رأي أو كلمة، إلا بميزان عدل في جميع الحقوق، وإذا كان للتأثير بالرأي والفعل مكانته، فإن للكلمة قيمتها في التأثير والإمتاع إذا صدرت من أديب حاكم.

تأثرت الخطابة بشكل كبير بالمؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية في العصر الأموي، تلك المؤثرات المرتبطة بالأحداث التي رافقت قيام الدولة الأموية، والتي مهّدت لها كذلك، ولاسيما في بيئة الشام التي غدت مركز النّقل في ذلك العصر، كما تأثرت الخطابة باختلاف الأمة حول الإمامة، وما نتج عن ذلك من انقسام الناس إلى فرق وأحزاب وشيخ، ولكل فرقة خطيبها، ولكل حزب شاعره، وقد عبّروا جميعاً عما يدور في أنفسهم، ويجيش في خواطرهم من تأثرهم بهذا الخلاف السياسي الديني.

(1) أرسطو، طاليس، فن الخطابة، ص 255.

الأساليب الخطابية لدى خلفاء العصر الأموي

أبدع خطباء العصر الأموي وتميزوا في جميع مجالات الأدب بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي مرَّ بها هذا العصر، وظهر في هذا العصر الخطباء ذوو الألسن البليغة، وتتوعدت خطبهم، كما تتوعدت أهدافها، وتعددت أساليبها، وكان لكل منهم طريقته التي يتبعها في الخطابة، إضافة إلى اختلاف الخطبة باختلاف السبب الذي أُلقيت من أجله، ومن أشهر الخطب التي وردت في هذا العصر خطبة للخليفة معاوية بن أبي سفيان عندما حضرته الوفاة؛ حيث كانت آخر خطبة له، وجاء فيها: "أيها الناس إنَّ من زرعٍ استحصد، وإنِّي قد وليتكم ولن يليكم أحدٌ بعدي خيراً مني، وإنما يليكم من هو شر مني كما كان من وليكم قبلي خيراً مني، ويا يزيد، إذا دنا أجلي قولٌ عُسلي رجلاً لبيباً؛ فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغُسل، وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ وقرضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني واجعل هذا الثوب مما يلي جلدي دون أكفاني، ويا يزيد، احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي ووضعتموني في حفرتي، فخلُّوا معاوية وأرحم الراحمين"⁽¹⁾. نرى من هذه الخطبة أنَّ معاوية بن أبي سفيان بدأها بالنصيحة، ولذلك اعتبرها البعض من الرسائل؛ لأنها كانت مدونة، وهي من زرع حصد، وهنا وجه خطبته بكاملها للمستمعين له، كما وجهها لابنه يزيد، ولم يتحدث عن نفسه إلا بعد موته، فهو هنا ينصف الطرف الذي يقع فيه والحالة التي انتابته، وهو الموت ولقاء رب العالمين، ذلك الوقت الذي لن يكون فيه والياً، بل منصاعاً مطيعاً لأمر الله تعالى، راضخاً لحُكمه، ودليل ذلك ما قاله في نهاية الخطبة عندما وجههم إلى تركه بعد موته، والالتفات إلى أمورهم. ولم تخلُ الخطبة من السجع، كـ "جريدتي" و "حفرتي"، وكثير فيها تكرار بعض الكلمات كـ "مني"، ويتبين من خطب معاوية أنَّ التبليغ بمعنى الخطبة وكلماتها وما ترمي إليه هو للمستمعين، ويُعدُّ معاوية رمزاً للدهاء والسياسة، وكانت العرب تضرب به المثل في ذلك ولعلَّ أشهرها مصطلح "شعرة معاوية"، وهو كناية عن حسن السياسة أو الدبلوماسية في المصطلحات الحديثة، ويظهر ذلك جلياً في الخطبة المشهورة عنه، والتي قال فيها: "إنِّي لا أضع سفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، لو أنَّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدَّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها"⁽²⁾. هذه البلاغة والحكمة تجعلنا نعجب ببراعة معاوية الذي كان مثلاً لحاكم يدرك ويعرف مداخل ومخارج رعيته. كما تميز أسلوب معاوية بن أبي سفيان في خطبه بالوعيد المتكرر، وضرب الأمثال للتحذير والتخويف، حيث خطب في أهل المدينة قائلاً: "يا أهل المدينة، إنِّي لست أحب

(1) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج8، ص163.

(2) ابن عبد ربِّه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج1، ص125.

أن تكونوا خلفاً كخلق العراق؛ يعيرون الشيء وهم فيه، كل امرئ منهم شيعة نفسه، فاقبلونا بما فينا فإن ما وراينا شرٌّ لكم"، حيث ضرب في هذه الخطبة أهل العراق مثلاً لأهل المدينة، وقصد تحذير أهل المدينة من أن يكونوا كأهل العراق، ودليل ذلك في تكلمة الخطبة عندما هدد بشكل ضمني إن ما وراينا شر لكم⁽¹⁾.

لقد تأثرت خطب معاوية بالحالة السياسية التي وسمت ولاية الأمويين؛ حيث أدت الظروف السياسية التي تولى فيها الأمويون الخلافة إلى تحول أسلوب الحكم، من خلافة تقوم على الشورى، كمبدأ إسلامي سياسي، إلى حكم كسروي عضود، يقوم على "التوريث"، لذلك عملوا على تجهيز عقول وأفكار العامة لهذه الفكرة، وهذا ما حدث فعلاً، حيث تولى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعد موت أبيه مباشرة، والذي اختلف أسلوبه الخطابى عن أسلوب أبيه، وكان من أهم خطبه خطبته بعد وفاة أبيه وتولية الخلافة، والتي قال فيها: "الحمد لله الذي ما شاء صنع، ومن شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع، إن أمير المؤمنين كان حبلاً من حبال الله، مده ما شاء أن يمهده، ثم قطعه حين أراد أن يقطعه؛ وكان دون من قبله، وخيراً ممن يأتي بعده، ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه؛ فإن يعف عنه فبرحمته، وإن يعاقبه فبذنبه؛ وقد وليت بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا أني على طلب علم؛ وعلى رسلكم، إذا كره الله شيئاً غيره؛ وإذا أحب شيئاً يسره"، ويظهر في أسلوب يزيد بن معاوية أنه يطمح إلى التغيير في علاقة الخليفة بالعامة، من خلال إبراز جانب الوعظ والإرشاد في الخطبة، والبعد عن أسلوب التهديد والوعيد والتخويف الذي اتبعه أبوه، على الرغم من أن الظروف السياسية كانت متوترة بعض الشيء في عهده. ونرى أيضاً الاختلاف في الأسلوب اللغوي الذي اتسمت به خطبة يزيد؛ فكثرت فيها السجع، والتضاد (خفض، رفع)، (يمده، يقطعه). ومن خطب يزيد أيضاً: "إني أحتركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حقت بالشهوات، وراقت بالقليل، وأينعت بالفاني، وتحببت بالعاجل، لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجيعتها، أكالة عوالة غرارة، لا تبقى على حال، ولا يبقى لها حال، لن تعدو الدنيا -إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا بها- أن تكون كما قال الله عز وجل⁽²⁾:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾⁽³⁾.

(1) ابن عبد ربّه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص171.

(2) المرجع السابق، ج4، ص178.

(3) سورة الكهف: الآية (٤٥).

ويبرز في هذه الخطبة أسلوب الوعظ بشكل جلي، الذي وصل إلى أعلى درجات الرقي اللغوي، باستخدام مفردات وجمل تحث الناس على تقوى الله ومخافته، فحين يُغمضُ الإنسان عينيه في محاولة لتصوير بعض خصائص الخطيب المؤثر من خلال خطبته، فإنه يخرج بمجموعه من الخصائص تكون تبصرة وذكرى لكل راغب في تحمل أعباء مواجهة الناس. وجدير بالذكر أنَّ معظم ما صدر عن يزيد بن معاوية من خطب ورسائل، تركّز على الأساليب التي تخدم الدعوة إلى الله، وتنبّت دعائم الدولة الإسلامية في العهد الأموي التي أرسى قواعدها رسول الله عليه الصلاة والسلام. وأما عن سمات الأسلوب اللغوي فقد قل فيها السجع، واستخدم التناص المباشر مع القرآن الكريم "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ"، وجاء التناص هنا للإقناع وتأكيد القول.

نستنتج مما سبق أنَّ يزيد بن معاوية امتلك أسلوب الوعظ والإرشاد في خطبه، وذلك رغبة منه في استمالة الناس إليه، وليغير الصورة التي كوَّنها الناس عن فترة الحكم التي استمر فيها والده معاوية، والذي اتسمت خطبه باستخدام أسلوب الترهيب والتخويف والتهديد. وجاء من بعد يزيد خلفاء كثر لديهم أسلوب الوعظ والإرشاد كخطب بني مروان، وخصوصاً الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك بن مروان، أما عبد الملك بن مروان فقد اشتهرت عنه خطبة، يُمكن وصفها بأنها عودة إلى عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث كان عهده من أكثر العهود دموية، إذ قُتلَ ابن الزبير على يد الحجاج في مكة المكرمة. وخطب عبد الملك بن مروان في مكة، فقال في خطبته: "أيها الناس، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف -يريد عثمان بن عفان- ولا بالخليفة المداهن -يريد معاوية بن أبي سفيان- ولا بالخليفة المأفون -يريد يزيد بن معاوية- فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا ثم نزل". وخطب على المنبر فقال "أيها الناس إن الله حد حدوداً وفرض فروضاً فما زلتم تزدادون في الذنب ونزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف"⁽¹⁾. وكان أسلوب الخليفة عبد الملك بن مروان واضحاً كما في حروبه؛ حيث كانت الدولة الإسلامية مقسمة بين خلافتين؛ الدولة الأموية تحكم مصر والشام بينما العراق والحجاز تحت خلافة عبد الله ابن الزبير. وبعث عبد الملك بن مروان بالحجاج بن يوسف الثقفي لكي يبسط نفوذ الأمويين على كامل الأراضي الإسلامية، فسار إلى مكة وحاصر ابن الزبير فيها، ونصب المنجنيقات على جبل أبي قبيس وعلى جبل قعيقعان، ودامت الحرب أشهراً، وقتل فيها ابن الزبير وهزم جيشه. ويصف بعض الكتاب ما قام به عبد الملك بن مروان بأنه فضلٌ على الدولة الإسلامية؛ لأنه هو من قام بتوحيدها، حيث

(1) صفوت، مرجع سابق، ج2، ص192.

يعتُون عهده من أهم العهود الأموية منذ تولي معاوية بن أبي سفيان. وعلى الرغم من الحدة التي اتسم بها خطاب وأسلوب عبدالملك بن مروان، إلا أن ولديه الوليد وسليمان اختلفا معه، فقد كان أسلوبهما دعويًا، يحمل في طياته ملامح قوية للوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام، وقد قال الجاحظ فيهم وفي أدبهم: "وكان من الخطباء: معاوية ويزيد وعبدالملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد والوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز"⁽¹⁾، ولما مات عبد الملك بن مروان، ورجع الوليد من دفن عبد الملك، لم يدخل منزله حتى دخل المسجد، ونادى في الناس: الصلاة جامعة! فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، لا مؤخر لما قدم الله، ولا مقدم لما أحر الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه من الموت - موت وليّ هذه الأمة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدة على المريب، واللين على أهل الفضل والدين، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه، وحجّ هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشنّ الغارات على أعداء الله؛ فلم يكن فيها عاجزاً، ولا وانياً، ولا مفراطاً؛ فعليكم أيها الناس بالطاعة ولزوم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الفذ". وخطب سليمان بن عبد الملك فقال: "الحمد لله، ألا إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتفقر مثرياً، وتثري مفقراً، ميّالة، غرّارة، لعّابة بأهلها. عباد الله، فاتخذوا كتاب الله إماماً، وارتضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً. فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب [يعده] واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عسعس"⁽²⁾. وبلغ خلفاء الدولة الأموية فصاحة قلماً تتاح لغيرهم، وكانت الأسر الحاكمة أسراً أدبية، فيها الخطباء البلغاء المفوّهون والمتحدثون، والشعراء الأقوياء الفحول الأفذاذ والنقاد ذوو البصيرة والإدراك، وتعقد في قصورهم المجالس والندوات الأدبية، وكانت طريقة اكتساب الخلفاء الأمويين للعربية والحفاظ عليها بالاعتماد على إرسال أبنائهم إلى البادية لتتم لهم استقامة اللسان، والنشأة على الفصاحة والبلاغة. ويروى عن عبدالملك بن مروان قوله للوليد: "أضر بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية"⁽³⁾.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج1، ص352.

(2) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص179.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج1، ص205.

شجّع خلفاء بني أمية الأدب والأدباء واللغة عامة والخطابة خاصة، وأولوها اهتماماً؛ حيث استقدموا الخطباء إلى مجالسهم، وحاولوا توجيه أدب الخطابة وجهة سياسية ملتزمة بأرائهم وأفكارهم، ودعوتهم لأنفسهم في خلافة المسلمين. وبالمقابل كان ولاية بني أمية يرسلون إلى دمشق -عاصمة الدولة الأموية- من يأنسون منهم أدباً غزيراً في الخطابة، وغيرها من الآداب الأخرى، وفصاحة ولساناً. ومن الأمثلة على ذلك إرسال الحجاج بن يوسف الثقفي جريراً إلى الخليفة عبد الملك بن مروان⁽¹⁾، وكانت دمشق أيضاً ترسل خطب المحافل والوفادات إلى باقي ولايات الدولة الإسلامية.

يُعدُّ الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز من أزهده الحكام وأكثرهم تقوى ومخافة لله، وقد وصف عهده بشيبه عهد الخلفاء الراشدين لما ساد به من عدل، وظهر الزهد حتى في خطبه ونورد هنا نموذجاً منها، وهي آخر خطبة له -رحمه الله-. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: "أما بعد، فإنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولن تُتركوا سدىً، وإن لكم معاداً ينزل الله للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرِمَ جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم وخاف، وباع نافداً بباقي، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسنكون من بعدكم للباقيين كذلك، حتى تُردَّ إلى خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تُشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه حتى تُغيَّبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب؛ فهو مُرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء مواعيقته، ونزول الموت بكم، أما إنني أقول هذا وما أعلم أن عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه"، ثم رفع طرف رداءه على وجهه فبكى وأبكى من حوله⁽²⁾. ومن خصائص هذه الخطبة النادرة: القوة والوضوح والجمال، فإن هذه النعوت من أجل الخصائص الفنية لخطبة عمر بن عبدالعزيز، والوضوح ألزم صفات الأسلوب الأدبي، وأولها بالرعاية؛ لأنه يحقق الغاية الأساسية وهي الإفهام، ويكون ذلك بإيقاظ العقول الخاملة، وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس المتلقين، وبذلك يهب النص الأدبي للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية لتكون ممتعة مؤثرة، فهذه الحياة أو هذه الخصوصية هي التي تسمى القوة، والقوة صفة نفسية تتبع أول أمرها من نفس الأديب الذي يجب أن يكون متأثراً مُنفعلاً إذا شاء من قرأته حماسة وقبولاً وانفعالاً، والقوة بذلك تعني صفة العاطفة والإرادة والأخلاق قبل أن تكون صفة الأسلوب".

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، (1983). كتاب الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج7، ص20.

(2) ابن عبد ربّه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص182.

وإذا تأملنا كلام عمر -رحمه الله- ووضعه على محك هذا المقياس النقدي "أعني مقياس قوة الألفاظ ووضوحها وجمالها" - فسنجد عددًا من الفقرات ذات الطابع الفني الجميل الذي يحمل تلك الخصائص؛ مثل قوله: "فإنكم لم تُخلقوا عبثًا"، "وإن لكم معادًا ينزل الله للحكم فيكم، والفصل بينكم"، "ألم تعلموا أنه لا يأمن غدًا إلا من حذر اليوم وخاف"، "وباع نافذًا بباق"، "وقليلاً بكثير"، "وخوفًا بأمان"، إن هذه الألفاظ في هذه الجمل والتراكيب تشكّل أسلوبًا بيانياً فريداً رائعاً؛ حيث لا غرابة ولا تعقيد، وإنما سلاسة وعذوبة ووضوح وجزالة وجمال، علاوة على أنّ هذه النعوت فيها خدمة للمعنى؛ حيث التناسق في رصف الجملة والتراكيب في عدد من الفقرات التي تتراوح بين الطول والقصر، مع ما ازدان بها نظماً من تلك المقابلات الفنية العجيبة بين قوله: "نافذًا بباق"، "قليلاً بكثير"، "خوفًا بأمان"، "الهالكين والباقيين"، "غادياً ورائحاً إلى الله"، "غني عما ترك، فقير إلى ما قدّم"⁽¹⁾. ومن الخصائص الفنية التي تُجلى وتجلّ النص الأدبي، وتغشيه بالقبول، وتمنحه سمة التأثير والخلود، ما يجري على لسان قائله؛ من سوق الحكم الصائبة، وضرب الأمثال السائرة، والافتباس اللطيف من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فإن في كلام عمر -رحمه الله- من هذه الخصائص ما جعل خطبته تلك في أقصى الطبقة العليا من مدارج البيان بعد القرآن الكريم والحديث الشريف، ومن جملة هذه النعوت التي تميّزت بها كلمات هذا النص قوله: "وحرّم جنّة عرضها السموات والأرض" من آية قرآنية، وقوله "فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدّم"، هذه الجمل المتساوقة من حديث نبويٍّ شريف، وهو قول رسول الله ﷺ: "إذا مات الرجل صحبه ثلاثة؛ أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى الثالث؛ يرجع أهله وماله، ويبقى عمله".

الأساليب الخطابية لدى ولاة العصر الأموي

تأثر الأدب في العصر الأموي تأثراً كثيراً بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حيث أثر القرآن الكريم في ملكات العرب، وهذب ألسنتهم ورقق مشاعرهم وطباعهم وكانوا يحفظونه، ثم دُون وورّع على الأمصار في عهد عمر بن عبد العزيز، فعاد الأمويون بذلك إلى جزالة الجاهلية وصلابتها، واهتموا برواية الأدب، ونحو ذلك يقال في مجالس القصص والوعظ، وقد كان فيها البليغ والخطيب والأديب الذي يسحر القوم، ولا يفوتنا أدب البلغاء والفصحاء، الذي له الأثر الكبير في بيئة⁽²⁾ وبلاغة أهل الشام وبيانهم، إذ غدت قبلتهم، إليها

(1) الشايب، أحمد، (1991). الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط (8)، مكتبة النهضة المصرية، ص164.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج1، ص291.

يوجهون الرحال، وفي قصورها يتنافسون بخطبهم بكل ما تمثله من بلاغة وبيان، وقد أفاد العرب من اختلاطهم بالموالي والعناصر الأجنبية، فسمعوا عن ثقافات الأمم القديمة، وروي لهم بعضها، وتحدثوا بها في مجالس سمرهم مما أكسب العقول عمقاً وفهماً ومعرفاً، وظهر أثر ذلك في تقدم العلوم، ونهضة الفنون والآداب⁽¹⁾.

تأثرت الخطابة بشكل كبير بالمؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية في العصر الأموي، وقد ارتبطت هذه المؤثرات بالأحداث التي رافقت قيام الدولة الأموية، وكان كل خطيب يعبر عن رأي حزبه وفرقته، وكانوا جميعاً قد اعتنوا بتحسين خطبهم، واشتهر في كل نوع من أنواع الخطابة خطباء أحسنوا صناعة الكلام، وتقفوا ذلك؛ ففي الخطابة السياسية نجد زياداً والحجاج، وهما يمثلان الذراع السياسي لدولة بني أمية، ونحوهما قطري بن الفجاءة في حزب الخوارج، والمختار الثقفي في حزب الشيعة. ولم تكن الخطابة السياسية هي الخطابة الوحيدة التي استحوذت على منابر العصر الأموي، فثمة خطابة أخرى هي خطابة المحافل، وقد نمت في هذا العصر، ولاسيما في دمشق الشام، بحكم السلطان العربي، واستقرار الملك في بني أمية، فكانت وفود العرب تفتد إليهم في دار الخلافة بدمشق، ويقوم خطباؤها بين يدي الخلفاء، فيعرضون ما عندهم بما يستطيعون عليه من فصاحة وبلاغة وبيان، ونعد من هؤلاء الأحنف بن قيس، وكان من أشهر خطباء المحافل في هذا العصر، وكان يقف لقومه على معاوية، فيلقى إليه برغباتهم، ونحوه كثير من سادة الأعراب وعامتهم⁽²⁾.

لقد اعتنى هؤلاء الخطباء بالسجع عناية شديدة، فكانوا يبالغون في التأنق فيه تأنقاً يتمشى مع الموقف الذي يتخذونه، والمجلس الذي يقومون فيه، ومما يُمثّل به لهذه الخطابة مما شهدته دمشق، ما رواه الحصري عن وفادة الأحنف على معاوية في حاجة أهل البصرة، قال: "قدم الأحنف على معاوية وأفداً لأهل البصرة يستعطفه لهم، وكان مما وصف به أهلها قوله: "أهل البصرة عدد يسير، وعظم كثير مع تتابع من المَحُول، واتصال من الدُحُول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقلُّ قد أملق"⁽³⁾.

ونضيف هنا مقطعاً خطابياً آخر من خطبة سياسية في محاولة لتوضيح هذا الاتجاه النثري الخطابي الذي شهدته دمشق، ويكاد يكون خاصاً بها، ونعني بذلك ما خطب به عبد الملك بن مروان في أعقاب قتله معارضة عمرو بن سعيد بن العاص قال، وقد أذن للناس أذنأ عاماً، وجثة عمرو في ناحية قصره: (الأشدق) منكم "ارموا بأبصاركم نحو مصارع أهل

(1) النص، إحسان، مرجع سابق، ص70.

(2) المرجع نفسه، ص44.

(3) الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (2001). زهر الآداب وثمر الألباب، مفصل بقلم الدكتور زكي مبارك، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص87.

المعصية، واجعلوا سلفهم لمن غير، منكم عظة، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار فتنزل بكم جائحة السطوة، وتجوس خلالكم، بوادر النقمة..."، فهذا غيظ من فيض مما تعلق بهذا الاتجاه النثري الخطابي الذي شهدته دمشق الشام⁽¹⁾.

تُعدُّ خطبة زياد بن أبيه (الخطبة البتراء)^(*) نموذجا كاملا للخطابة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي بخاصة، وفي العصور اللاحقة بعامة، وجعلت منه رجل الخطابة الأول في عصره، وكان زياد خطيباً ينشر الدعوة لبني أمية ويدعو إلى السكينة والانقياد، كما أنه كان يتمتع بسُلطان واسع على أبناء ولايته، كما كان شديد الاطلاع على أحوال الناس ونفسياتهم، ومن يرجع إلى خطبة زياد البتراء يلاحظ أنه عني بتأليفها عناية شديدة فهي مقسمة إلى فقرات وكل فقرة نشعر إزاءها كأنها وحدة قائمة بنفسها، وربما كان هذا هو أهم فارق بين خطبة زياد وخطب صدر الإسلام. والأهم من هذا أن الخطيب لم يتطرق فيها إلى الدين وأحكام الشريعة، بل فصل فيها كل ما يتعلق بالمجتمع، ظروفه وملابساته ومشكلاته، وكأنها خطبة للأحكام العرفية التي تضعها الحكومات في الحالات الطارئة عندما تتعرض للأخطار الداخلية والخارجية المهددة لسلامتها. لذلك قمنا بتحليل هذه الخطبة اجتماعياً وأدبياً.

ألقي زياد خطبته في البيئة الحضرية والاجتماعية المضطربة، حينما وُلِّيَ البصرة، لمعاوية بن أبي سفيان، وهي تتصل بظروف تحكمت بمعاني الخطبة وألفاظها؛ كانت البصرة قد شقت عصا الطاعة على بني أمية، وانحلت فيها رابطة الخلق، وعمتها مفاسد الأخلاق، وبيوت الفحش والريية، فقد عرف زياد أهل البصرة وعرقوه من قبل، حين كتب لأبي موسى الأشعري في أثناء ولايته عليها، في خلافة عمر بن الخطاب؛ وقد كان بينه وبين قوم منهم إحن نشأت عن تعبيرهم له بنسبة الضعيف، قبل أن يستلحقه معاوية بأبيه، ولا ريب أن تلك المواقف الماضية كانت لاتزال تؤثر في نفسه وتشعره بمركب النقص، ولم يكن بوسعها أن يتجاهل ذلك، وذكأوه كان يحدوه به إلى التعويض والتكافؤ⁽²⁾ فكان على زياد أن يخلص لبني أمية، ويثبت لهم خلافتهم، ويؤكد حقهم في السلطة وأن يرجع أهلها إلى جادة الحق ويحملهم على الإذعان للأمويين، وقد بات يعدُّ نفسه منهم، إذ نرى أنه يبدأ الخطبة هكذا: "أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والعمل الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير؛ كأنكم لم تقرأوا

(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص399.

* الخطبة البتراء: هي الخطبة التي تكون مبتورة المقدمة وتخلو من حمد الله -عز وجل- والثناء عليه.

(2) الطَّبَّاع، عمر فاروق، (1991). مواقف الأدب الأموي، ط(1)، دار القلم، بيروت، لبنان، ص257.

كتاب الله، ولم تسمعوا بما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب العظيم لأهل معصيته، في الزمن السرمد الذي لا يزول، أكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة، وباعدتم الدّين؛ تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس؛ كلّ امرئ منكم يذبّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً؛ ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أظرقوا وراعكم، كنوساً في مكانس الرّيب⁽¹⁾.

ترينا المقتطفات السابقة من الخطبة مدى عناية زياد بتأليفها؛ حيث استهلها ببيان غواية المجتمع البصري وضلالته وانحرافه عن هدي الإسلام والقرآن الكريم، ثم يبين لهم سياسته التي سيأخذهم بها، وأنها لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب، حتى إذا اطمأن إلى أنّ هذا المجتمع قد استكان أمام صولة الدين، وأطرق إزاء ذلّة الخطيئة ووطأة الذنوب، راح يتحسس في قلوبهم مواطن الندامة؛ يبذل ثوب الواعظ ويظهر بلباس الحاكم الذي جاء يمارس صلاحياته ويوغل في العنف والتهديد، ويذكّر الناس بما أحدثوا في الإسلام من ذنوب ويلزمهم بأمور مثل الكف عن دعوى الجاهلية، ولعلّ زياداً قد شعر بأنّ أهل البصرة، قد أنسوا بوعوده ووعيده وبرقة تحذيره، فلهذا يختم كلامه بما يرددهم إلى الحيطة والحذر والخوف، وأنذرهم من التمادي في الباطل، كما في قوله: "وإني أقسم بالله لأخذنّ الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح بالسقيم"، ثم في مقطع آخر يقول: "من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له، فإياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه"⁽²⁾.

ولم يكن الحجاج يَقلُّ عن زياد بياناً، وإعراباً عما يختلج في صدره، ولعل أشهر خطبه له تلك التي خطبها في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبيل عبد الملك بن مروان. فقد حدّث معاصروه أنه دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، بدأ بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز حمراء، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص199.
(2) المرجع نفسه، ص200.

"أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني"، أما والله إنني لأحتمل الشر بحمله، وإنني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحن قطفها وإنني لصاحبها، وإنني لأنظر إلى الدماء بين العمام واللحى". ثم أخذ ينشد أبياتا تنذر بما سيأخذهم به من عنف، فهم كما يقول أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، وقد نثر عبد الملك جعبة سهامه فوجده أمرها عوداً، فرماهم به، ويردد وعيده لهم وتهديده من مثل قوله: "أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، وقوله: "أما لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده".

والخطبة سياسة خالصة، فهي ذات موضوع زمني واضح، وهي تصور سياسة الحجاج التي اشتهر بها في كتب التاريخ، والتي كانت تقوم على العنف الشديد في غير لين، ولعل ذلك ما أراده الحسن البصري حين قال فيه، وفي زياد: "تشبه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد، فأهلك الناس".

فقد بلل الحجاج أيضاً ثيابه وملبسه، حتى يغرب على السامعين ويروعهم، ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب، فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة، وهي تتراكم في الخطبة تراكماً شديداً، كما تتراكم في خطبه الأخرى، ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب، والتهويل في منطقه ما رواه المبرّد من أنه "كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً، فلا يكاد يسمع، ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة، فيفزع بها أقصى من في المسجد"، ومعنى ذلك أنه كان في مظهره أثناء خطابته، وفي صوته وفي لفظه، وما تحويه خطبته من شعر وصور نادرة يريد التهويل على السامعين، ويحاول أن يحكم صنعته في الخطابة من جميع أطرافها، حتى في إشارة اليد، وفي الهمس بصوته، والجهر به حتى يخلب القلوب. على أننا نلاحظ أنه كان يتحامي السجع مثله مثل زياد، لكنه بعد ذلك كان يُعنى باختيار ألفاظه، ملتصقاً منها ما ليس متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً، وهو حقاً يُعدُّ في الذروة بالنسبة لبلغاء عصره، حتى ليقول عنه مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق، لبيانه وحسن تخلصه". ومما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد في ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات، ولكن زياداً يتفوق عليه في بناء خطبه وإحكام تأليفها، بحيث تتابع في فقر وأجزاء متسلسلة. وليس معنى ذلك أن الحجاج لم يكن يطيل خطبه، فقد كان كثيراً ما يطنب في خطابته، ويسهب إسهاباً شديداً، وخاصة في مواظة الدينية، وقد بقي له منها قطع تدور في كتب الأدب من مثل: "اللهم أرني الهدى هدى فاتبعه، وأرني الغي غياً فأجتنبه، ولا تكنني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيداً"، ومثل: "إنا والله ما خلقنا للفناء، وإنما خلقنا للبقاء".

وعلى نحو ما تصور الخطبة سياسة الحجاج فإنها تصور فصاحته، وبلاغته، وحفظه للشعر الغريب، إذ اتخذه مقدمة لكلامه، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له، وهي فاتحة بيتدئ فيها، ويطلب التشبه بالبدو لا في لغته فحسب، إنما ننقل من دار إلى دار"، وكان الحسن البصري يقول فيه "يعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين"، ويروى أنه قال: "لقد وقذنتي كلمة سمعتها من الحجاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: "إنَّ امرأً ذهبت ساعة من عُمره في غير ما خلق له لخليقٌ أن تطول عليها حسرته".

الأساليب الخطابية لدى الخوارج والشيعة

يُعدّ الخوارج والشيعة مكونين سياسيين رئيسيين من مكونات العصر الأموي، وكان لهما أكبر الأثر على الحياة وعلى الأدب في العصر الأموي. وتأثر أدب الشيعة والخوارج بالحالة السياسية المسيطرة على ذلك العصر، حيث وجه الخلفاء الأمويون جُلَّ اهتمامهم للقضاء على هاتين الحركتين. لذلك فقد انصبَّ أدب الخوارج و الشيعة على التحريض ضدَّ الأمويين، ومحاولة كسب تأييد الناس. وكان لكلِّ منهم نموذج الأدبي الخاص في كل مجال؛ ففي الخطابة اشتهر من الخوارج قَطْرِيُّ بن الفجاءة وأبو حمزة الشاري في مكة والمدينة، ومن الشيعة اشتهر المختار الثقفي. أما قَطْرِيُّ بن الفجاءة فقد كان زعيماً من زعماء الخوارج، تميز بالذكاء والقدرة على الإقناع، وتفقه بالقرآن الكريم وتأثر به، وكان خطيباً مميّزاً. ومن خُطْبِهِ أنه سعد منبر الأزارقة- وهو من بني مازن بن عمرو بن تميم- فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حُلوة خَصْرَة، حُققت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وغُمرت بالأمال، وتحلت بالأمانى وزُيِّنت بالغرور، لا تدوم حسرتها، ولا تؤمن فجعتها؛ غدارة ضرارة، وحائلة زائلة، ونافذة بائدة؛ لا تعدو- إذا [هي] تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها- أن تكون كما قال الله عز وجل⁽¹⁾: ﴿كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ

فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ۗ﴾⁽²⁾.

وكانت مناسبة الخطبة تتعلق بما كان دار بين الخوارج وبني أمية من قتال عنيف وحرب طاحنة، حيث يدعو قَطْرِيُّ بن الفجاءة أتباعه إلى القتال ويحذرهم من الدنيا والاستسلام إليها، وما ينتج عن ذلك من تكاسل وتخاذل وقعود عن القتال، والدفاع عن معتقدات الخوارج،

(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص225.

(2) سورة الكهف: الآية (٤٥).

فهو يحذرهم منها؛ لأنها جميلة تأسر الناس بحبها، امتلأت بالمتع والشهوات، وطابت بالقليل من النعم إذا ما قورنت هذه النعم بنعم الآخرة، ولكنها قد حليت وتزينت في عيون راغبيها، وقد سيطرت على الخطبة عاطفة حب القتال الممزوجة بكرامية الشهوات وما ينتج عنها من تخاذل والرغبة في مواصلة القتال، واستخدم قطري التشبيه التمثيلي حين شبه نعيم الدنيا والأمانى فيها التي تتحقق ثم تزول بالنبات الذي ينبت لتساقط الأمطار، كما استخدم النصح والإرشاد عندما قال "فإني أحذركم الدنيا"، وجاءت خطبة قطري مكتظة بالتشبيهات؛ كتشبيهه الدنيا بأنها طعام حلو ونبات أخضر في قوله: "فإنها حلوة خضرة"، وتشبيهه الدنيا بشيء مادي تحيط به الشهوات، في قوله: "حُقَّت بالشهوات"، واتسمت خطبته بوضوح الألفاظ وقوة المعاني؛ حيث لا يجد أي شخص صعوبة في فهم معانيها، واستنتاج المعنى المراد من لفظه، وصياغة الألفاظ والعبارات بعناية. كما تميزت بقصر الجمل، وكثرة الصور البيانية، والمحسنات البديعية غير المتكلفة، بالإضافة إلى تأثرها بالقرآن الكريم.

كما يُعدُّ أبو حمزة الشاري من خطباء الخوارج، وقد دخل المدينة المنورة، فخطب على منبر رسول الله -ﷺ- ومما قال في خطبته تلك: "يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي. قلت هم شباب أحداث وأعراب جفاة. ويحكمُ يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله، -ﷺ-، إلا شباباً؟ نعم والله إن أصحابي لشباب، ولكنهم شباب مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفُساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، قد خلطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، محنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بأية خوف شهقوا خوفاً من النار، وكلما مروا بأية رجاء شهقوا شوقاً إلى الجنة، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انثُصيت، وإلى الرماح وقد أشرعت، وإلى السهام وقد صُوبت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيدها عند عيد الله وانغمسوا فيها، فطوبى لهم و حسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً وساجداً في طاعة الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب"⁽¹⁾. بمثل هذه الروح القتالية الشجاعة، والمؤمنة بمبدئها وثباتها الراسخ على موقفها من القضية التي حملها أبو حمزة ورجاله كان الخوارج يمثلون الثورة على الظلم الذي مارسه بنو أمية، خصوصاً في أواخر العهد الأموي. ومن خطباء الخوارج أيضاً حبيب بن خدره، والضحاك بن قيس⁽²⁾.

(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص.228.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج3، ص177.

إنَّ المذاهب والأحزاب التي ظهرت في العصر الأموي لم تنتفض على الأمويين بالسيوف فحسب، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء الأقوياء الذين يدعون لها، ويحمسون الناس على الانفضاض عن بني أمية، ومن المهم أن نعرف أن السياسة على السنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط، وهو أن الخليفة عند المسلمين يُعد إمامهم الذي تنتظم به مصالحهم وقواعد ملَّتهم على مقتضى الشريعة الإسلامية، وعلاوة على هذا السبب السياسي، فهناك سبب ديني خالص؛ إذ أسست في كل بلد إسلامي مدرسة دينية تعلم الناس أصول دينهم وفروعه، وكان العلماء القائمون عليها كثيرًا ما يختلفون، فيتحاورون في وجهات نظرهم، ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة، ومناقشات طويلة في القدر، وإرادة الإنسان ومدى حريته، وفي الإيمان وهل من الضروري له أن يرافقه العمل، وفي صفات الله وهل هي عين الذات الإلهية، وسرعان ما ظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة، فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات الخطابية، وهي فرع مهم من فروع الخطابة⁽¹⁾.

ولا يقلُّ خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج، وقبل ذلك تميّز الحسين بن علي بن أبي طالب على الرغم أن مدة خلافته ستة أشهر، وذلك قبل ظهور خطباء الشيعة، علي بن الحسين، وزيد بن علي، والمختار الثقفي، وسليمان بن صرد، وعبد الله بن مطيع، وعبيد الله المرّي. ومنهم بنو صوحان: صعصعة وزيد وسيحان، وكانوا يكثرّون من القدر في بني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة الأنبياء، وحملة الرسالة القدسية الهادية، والأئمة المنتظرين. فقد تطورت الخطابة وارتقت رقياً باهراً في العصر الأموي، ونشطت نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه في عصر من عصورهم الوسيطة، إذ اتخذوها أدواتهم للظفر في آرائهم السياسية، والانتصار في مجادلاتهم المذهبية، وعلّوا عليها في قصصهم ومواعظهم، وفي وفادتهم على الخلفاء والولاة، ومن ثم أُنعت فيها فروع ثلاثة، هي الخطابة السياسية، وخطابة المحافل والخطابة الدينية⁽²⁾.

يُعدُّ المُختار بن أبي عبيد الثقفي من خطباء الشيعة أصحاب السبق في الخطابة؛ حيث كان يسعى إلى السلطة بأيّ ثمن من خلال حشد الناس وضمهم إلى ثورته، حيث انطلق إلى الكوفة وبدأ منها سعيه إلى الحكم وامتلاك النفوذ، وناصب الدولة الأموية العدا، كما أن استظهار الباطن الروحي في مواقف سياسية علنية كانت من حيث الجوهر التعبيري النموذجي

(1) شوقي ضيف، مرجع سابق، ص 65.

(2) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ص 67.

عن تراكم شخصية المختار الثقفي السياسية والفكرية، ووجد هذا الالتقاء انعكاسه في شعاره الشهير "يا لثارات الحسين"، إذ عكس هذا الشعار أولاً وقبل كل شيء تاريخ المختار وشخصيته الباطنية والظاهرية، بمعنى أنه جسّد فيه رؤيته الفكرية وسلوكه السياسي، بحيث جعل منه أسلوب تحقيق المبادئ الكبرى المتعلقة بالرجوع إلى القرآن والسنة، ومنهما إلى حقوق المستضعفين، وبالتالي، فإن الالتقاء بالتشيع هو الصيغة الفردية والتاريخية والسياسية لمسار الروح الباحث عن نموذج أمثل لوجود البشر والدولة في العراق، وقد صنّعت هذه المقدمة شخصية المختار، ومن ثم حددت في مجرى مواقفه السياسية أسلوبه في العمل، كما نعثر على تعبيره الفكري الأول في أول خطبة سياسية عامة له من موقع "الشخصية المؤثرة" في الأحداث، أي تلك التي تفتحت فيها كل الكوامن العميقة بوصفها حقيقة الشخصية السياسية. ففي أول خطبة له في مسجد الكوفة قال: "الحمد لله الذي وعد وليه النصر، وعدوه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر وعداً مفعولاً وقضاء مقضياً! وقد خاب من افتري! أيها الناس! إن رفعت لنا راية، ومدّت لنا غاية. فقل لنا في الـراية أن ارفعوها، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تعدوها. فسمعنا دعوة الداعي ومقالة الواعي". ثم ضمّنها مبادئ حركته السياسية وانتهى فيها بعبارة: "فلا والذي جعل السماء سقفاً محفوظاً والأرض فجاجاً سبلاً، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب أهدى منها!".

إننا نرى في هذه الخطبة الصيغة العملية الدقيقة لرؤية النسبة الضرورية بين الوسيلة والغاية، وبالتالي بين الأبعاد العملية الآنية والبعيدة المدى. وهي أبعاد مترابطة بفكرة انتصار أولياء الحق بوصفه وعداً أبدياً. وأن الافتراء الممكن والمحتمل من جانب السلطة ومرترقتها عرضة للزوال. وأن البديل هو وحدة الـراية والغاية؛ أي الشعار العملي المحكوم بغاية كبرى على قدر الهموم المحتملة فيما تسعى إليه. وإن ما يسعى إليه هو استعادة حية للصيغة السياسية المثلى في العلاقة بين الأمة والأئمة، بين رجال الدولة والدولة، بين الحاكم والمحكوم. ووضع هذه الفكرة في خاتمة خطبته عندما اعتبر مبايعة أهل الكوفة إياه "أفضل بيعة بعد بيعة الإمام علي". إذ تتعدى هذه المقارنة حدود العلاقة بالسلطة إلى آفاق العلاقة بالتاريخ الواقعي ونموذجه الأمثل في الدولة. فقد كانت بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة الصيغة الشرعية والتلقائية الوحيدة المرتبطة باندفاع الأمة بلا إكراه. بمعنى أنها انطلقت من مساعي الأمة لتحكيم إرادتها في الاختيار والاختبار.

الفصل الثالث



التنصص وأشكاله في الخطابة الأموية

- توطئة
- التنصص لغة واصطلاحاً
- التنصص الديني في الخطابة الأموية
- التنصص الأدبي والتاريخي في الخطابة الأموية

توطئة

تتحكم كل من القراءة والكتابة في الإبداع الفني لكل حضارة أو أمة أو مجموعة معينة من الناس تجمعهم روابط تجعل هناك سببا لدراسة أدبهم. كما أن النص لا يمكن وصفه بالبديع إلا إذا استطاع كاتبه أو قائله أن ينشئ ويرتب كلماته ويضيف إليه ما يضيف من النصوص المكتسبة من مكان آخر، وبطريقة فنية تجذب القارئ والسامع إليه، وأشار أحمد بن أبي طاهر في وصفه للكلام العربي: "ملتبس بعضه ببعض، وأخذ أو اخره من أوائله، والمبتدع منه والمخترع قليل إذا تصفحته وامتحنته، والمُحْتَرَسُ المُتَحَقِّظُ المطبوع بلاغة وشعراً من المتقدمين والمتأخرين، وتخلل طريق الكلام، وباعد في المعنى، وأقرب في اللفظ"⁽¹⁾، وشكّل النظر إلى النص الأدبي من زاوية التفاعل مع النصوص الأخرى مبحثاً هاماً في النظرية الأسلوبية والنقدية، تشعبت قضاياها تحت مصطلح "التناص"، أو التداخل النصي أو التفاعل النصي، ويقصد هنا الكتابات المبنية على صلات بغيرها من النصوص الأدبية مهما كانت الصلات ظاهرة أو خفية.

التناص لغة واصطلاحاً

يُعدُّ النص الأدبي ممارسة لغوية تخضع للنظام اللغوي الخاص باللغة التي تمّت كتابة النص الأدبي بها، والذي يكتسب عادة عن طريق استيعاب نصوص أخرى أنشئت في هذه اللغة، واقتباسها وإدراجها فيه، مؤيدة لمعنى النص، أو دالّة عليه، أو مدعمة له، فهو يقوم أساساً على عملية إعادة إنتاج هذه النصوص السابقة له، والتي خبرها الأديب على شكل من الأشكال خلال مراحل تكوينه الثقافي⁽²⁾، وهو ما يسمى التناص. وكان أول من استخدمه الناقد والباحث السيمولوجي الروسي "باختين" ولكنه لم يكن بالدقة التي عليها الآن، ثم أصبح المصطلح ذا شهرة معرفية عند الغرب والعرب في آن واحد.

عند الرجوع للمعاجم العربية نجد معاني متعددة للنص وهي في مجملها تقيّد الرفع والحركة والإظهار؛ حيث إنّ النص: "رَفَعُكُ الشَّيْءِ، نصَّ الحديدَ يَنْصُهُ نصاً: رفعه، نص الحديدَ يَنْصُهُ نصاً: رفعه ونصَّ المتاع: جعله بعضه على بعض"، ونصَّ الشَّيْءِ: حرّكه، ونصَّ العروس: أَعَدَّهَا على المِنْصَةِ، ويقال: "نصَّ الشَّيْءِ: أظهره، وكل ما ظهر فقد نصَّ"،

(1) الحاتمي، أبو علي، (1979). حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق جعفر الكتاني، ج(2)، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، ص 28.

(2) قاسم، نادر، (2005). التناص القرآني والإنجيلي والتوراتي في شعر أمل دنقل، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد (6)، ص 241.

فالنص صيغة الكلام الأصلية التي وردت من مؤلفها والنص ما لا يحتمل إلا معنى واحداً أو لا يحتمل التأويل، والنص من الشيء منتهاه ومبلغ أقصاه، ويتضح مما ورد في المعاجم القديمة والحديثة أن الدلالة الحديثة للنص لم تكن غائبة في المعجم العربي، وهي تلتقي أيضاً مع دلالاته اللاتينية التي تشير إلي معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع، وهذا المعنى لا بد أن ينتقل إلى النص الأدبي الذي يمتاز عن النص العادي.

وفي الاصطلاح تعريفات عديدة لمصطلح النص تعكس توجيهات أصحابها فلقد عرفه "بول ريكور": "تطلق كلمة نص على كل خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة"⁽¹⁾، وعرف النص تعريفاً جامعاً بأنه "جهاز نقل لساني يعيد توزيع نظام اللغة؛ نقصد المعلومات المباشرة في علاقة مع ملفوظات مختلفة سابقة أو متزامنة"⁽²⁾.

شاع مصطلح التناص في العقد السابع من القرن الماضي من خلال بعض النقاد الغربيين، وأول من عرفه بدقة متناهية (جوليا كريستيفا)، حيث ترى أن التناص هو النقل لتغيرات سابقة أو متزامنة وهو اقتطاع أو تحويل، وهو عينة تركيبية تُجمع لتنظيم نص مُعطى التعبير المتضمن فيها، أو الذي يحيل إليه. ويُعرف "رولان بارت" التناص على أنه هذه العلاقات المتشابهة والمتظافرة، تتجه نحو القارئ الذي يقوم بتفكيك النص، وتشريحه لمنحه وجوده ومعناه. ويوضح (بارت) إن كل نص هو تناص، والنصوص تتعكس فيه بمستويات مختلفة متفاوتة، وبأنماط ليست عسيرة على الفهم، ومن خلالها يمكننا التعرف على نصوص الثقافة السالفة والحالية. كما يُعدُّ (ميشيل فوكه) من أهم الدارسين في الغرب لموضوع التناص حيث عرفه على أنه: "أخذ من نص أدبي أو غيره بأسلوب ظاهر أو خفي، يُعتمد فيه الأخذ على ثقافته وسعة معرفته"⁽³⁾.

ويعبر الخطاب النقدي الحديث عن التناص "بأنه خاصية ملازمة لكل إنتاج لغوي، أيما كان نوعه فليس هناك كلام يبدأ من الصمت، كل كلام يبدأ مهما كانت خصوصيته من كلام، ومن طبيعة الدال اللغوي أنه يمتلك تاريخاً لغوياً عريقاً، والتناص الأدبي هو تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً أو نثراً مع النص الأصلي"⁽⁴⁾.

(1) ريكور، بول، (1998). النص والتأويل، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد(3)، ص37.

(2) الزعبي، أحمد، (2000). التناص نظرياً وتطبيقياً، مؤسسة عمان للنشر، ص7.

(3) المرجع نفسه، ص9.

(4) الجزائر، محمد فكري، لسانيات الاختلاف، أطروحة دكتوراة، سلسلة "كتابات نقدية"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ص43.

تعد ظاهرة التناص، وانفتاح النصوص بعضها على بعض ظاهرة قديمة قدم الممارسة النصية ذاتها؛ إذ انشغل الخطاب النقدي العربي القديم بالمحدث، وعلاقة اللفظ بالمعنى، فأثارت هذه الانشغالات ما يعرف بالسرققات الأدبية، إذ أدرك الشعراء منذ الجاهلية ضرورة تواصل الشاعر مع موروثه الشعري وذلك للاعتراف منه، واقتفاء السلف، وما استفهام عنتره: "هل غادر الشعراء من متردّم"، إلا لإبراز تقليد البداية الذي ينبغي الأخذ به في كل نص شعري، لتتحقق شاعريته⁽¹⁾. كما شهد التناص خلطاً وتداخلاً واسعاً بينه وبين بعض المفاهيم الأخرى، مثل "الأدب المقارن" و"المثاقفة" و"الدراسات والمصادر" و"السرققات الأدبية" نتيجة لتقارب هذا المفهوم مع تلك المفاهيم فيما يخص الاتجاه العام بينها في التواصل والتأثير، إلا أن مفهوم التناص يختلف عن هذه المفاهيم على صعيد المعالجة النقدية لما يمتلكه من آليات نقدية حديثة وأنظمة إشارية ومستويات مختلفة تجعله بعيداً في الفعل الإجرائي عن تلك المفاهيم، ومنفرداً في العملية التحليلية والتركيبية أثناء إجراء التطبيق⁽²⁾.

كما يُعدُّ مفهوم التناص من المفهومات الحديثة في الكتابات النقدية العربية التي قد لا تعود إلى أكثر من عقد من الزمان مضى؛ إذ ظهر اعتماداً على آراء النقاد الغربيين الذين تناولناهم في الصفحات السابقة، فالنص في ضوء مفهوم التناص بلا حدود فهو متحركٌ متجددٌ، متغير، من خلال تشابكاته مع النصوص الأخرى، وتوالده من خلالها، بل هو يمنح النصوص القديمة تفسيرات جديدة، أو يقدمها بشكل جديد. وتحدّد آليات التناص بآلية الاستدعاء والتحويل ما يتطلب النظر إلى اللغة باعتبارها لغة إنتاجية منفتحة على مرجعيات مختلفة، وليس بوصفها لغة تواصل، والتناص ليس جديداً تماماً في الدراسات النقدية المعاصرة؛ إذ إنّ جذوره تعود في الدراسات الشرقية والغربية إلى تسميات ومصطلحات أخرى، كالاقتباس والتضمين والاستشهاد والقرينة والتشبيه والمجاز والمعنى، وما شابه ذلك في النقد العربي القديم، فهي مصطلحات أو مسائل تدخل ضمن مفهوم التناص في صورته الحديثة، لكنه يؤشر إلى مسألة هامة تتمثل في التفاوت الحاصل في رسم حدود المصطلح وتحديد موضوعاته. ولعل هذه الإشكالية المنهجية تتجاوز مفهوم التناص إلى غيره من النظريات النقدية الحديثة وما بعد الحداثة نظراً لتعدد الاتجاهات والتيارات النقدية التي تنشأ داخل كل نظرية من تلك النظريات⁽³⁾.

(1) ليديا، وعد الله، (2005). التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة، ط(1)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص15.

(2) ناهم، أحمد، (2004). التناص في شعر الرواد، ط(1)، بغداد، العراق، ص21.

(3) الزعبي، أحمد، مرجع سابق، ص19.

يقسم التناص إلى نوعين بحسب الطريقة التي تم أخذ النص فيها من مصدره الخارجي

وهما:

- التناص المباشر: ويقتبس النص بلغته التي ورد فيها، مثل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار، والقصص، والأمثال، والحكم⁽¹⁾.
 - التناص غير المباشر: وهو تناص الأفكار، أو المقروء الثقافي، أو الذاكرة التاريخية، ويستنتج استنتاجاً من خلال مخزون القارئ أو الخطيب أو الكاتب الثقافي، والمستمد من خلال مطالعته للنصوص، حيث يستنبط استنباطاً من النص وبخاصة الروائي.
- ويقسم التناص إلى إيجابي وسلبي كما يلي⁽²⁾:

- التناص الإيجابي: هو إنتاج أفكار قديمة بأسلوب جديد.
- أمّا التناص السلبي: فهو كالصدى المكرر للنص الذي سبقه.

التناص الديني في الخطابة الأموية

زَخَرَتْ الخطابة الأموية بنصوص أدبية كثيرة، بدأ أثرها واضحاً في نصوص الخطابة وسياقاتها المختلفة، مكونة نماذج عديدة من التناص -بشكل عام- والتناص الديني -بشكل خاص- أثرت في الخطابة الأموية وأعطتها رؤية جديدة للأحداث، وساعدت في تشكيل البناء والمعمار الفني والبديعي الجديد للخطابة الأموية. ولعل أهم ما يتم ملاحظته في الخطاب الأموي وأساليبه هو الوجود الثري للتناص المباشر، وخصوصاً الديني، وهو أن تتداخل نصوص دينية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والقصص الديني مع النص الأصلي، بحيث تنسجم النصوص المختارة مع السياق الخطابي للخطبة، ومن الخطب التي استخدم فيها الخطيب التناص الديني من القرآن الكريم، خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي، التي اقتبس فيها بشكل مباشر من سورة طه الآية القرآنية: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾⁽³⁾، حيث قال في خطبته: "يا أهل الكوفة إن الفتنة تُلَقَّح بالنجوى وتنتج بالشكوى وتحصد بالسيف، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم، زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾، وقد أفلحت!

(1) الزعبي، أحمد، مرجع سابق، ص16.

(2) المرجع نفسه، ص55.

(3) سورة طه: الآية (66).

وهذا يعدُّ تضميناً، واقتباساً، وزعمتم أنني أعلم الاسم الأكبر فلم تُقاتلون من يعلم ما لا تعلمون!"⁽¹⁾، حيث يتحدث الحجاج عن الفتنة، وعدم المبالاة بأهل العراق، وادعائهم بأنه ساحر، فاقتبس الآية القرآنية من سورة طه: ﴿وَأَلْقَى مَافِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾⁽²⁾. واقتطع الحجاج هذا الجزء من الآية، لتناسبها مع الفكرة العامة للخطبة، ولتناسقها الموسيقي مع مفردات الخطبة، واستخدم الحجاج هذا التناص لتأييد زعمه بأنه ليس بساحر، حيث جاءت الآية نافية للفلاح لمن يمارس السحر، وهذا إثبات بأن الحجاج ليس بساحر كما جاء في خطبته، فقد قام الحجاج باقتباس النص القرآني بفصاحته ودقة عباراته، مما يدلُّ على مدى ترابط النص الأصلي مع النص المقتبس من الآية القرآنية، ليكونا نصاً واحداً يهدف للمعنى نفسه، ويتوصل من خلالهما لنفس الفكرة لقصده إيصالها للمتلقين ممن كان حول الحجاج عند إلقائه لخطبته، أو ممن سيسمعوها؛ إذ تميزت الخطبة بقصر جملها، وخصوصاً في النص المقتبس، ليشكل نصاً واحداً من خلال عدم نفور اللفظ أو المعنى، وهناك تناص مباشر آخر في بداية الخطبة وهو في الجملة: "إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى"، وهي مقتبسة من الحديث النبوي الشريف المروي عن ابن عمر رضي الله عنهما، "قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْفِتْنَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أُذْبِرَتْ أَسْفَرَتْ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ تُلْقَحُ بِالنَّجْوَى، وَتُنْتَجُ بِالشُّكْوَى، فَلَا تُثِيرُوا الْفِتْنَةَ إِذَا حَمَيْتَ، وَلَا تَعْرَضُوا لَهَا إِذَا عَرَضَتْ"⁽³⁾، ولقد أسهم استعمال الحجاج للتناص - من الحديث النبوي الشريف - في تنبيه المستمع إلى أثر الفتنة، وفي توظيف التناص بما عزز الفكرة التي أراد إيصالها، وهي الخشية من وقوع الفتنة بين أهل العراق، وهنا ختم التناص، بالوعيد عندما قال: "وتحصد بالسيف"، وهو من أنواع التناص الديني المباشر.

يُعدُّ الحجاج من أكثر الخطباء الذين استخدموا نصوصاً من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كما في الخطبة السابقة. وكذلك فقد خطب الحجاج بن يوسف النخعي خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير، وارتجاج مكة بالبكاء، فصعد المنبر وقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله واستكن بحرم الله.

(1) عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، (2003). شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الجزء (1)، ص 346.

(2) سورة طه: الآية (69).

(3) المروزي، أبو عبدالله نعيم بن حماد الخزاعي، (1992). كتاب الفتن، تحقيق: سمير أمين الزهيري، ج 1، مكتبة التوحيد: القاهرة، ص 141.

ولو كان شيء مانعاً للعصاة لَمَنَعَ آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وادم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة⁽¹⁾. فقد استحضر الحجاج في هذه الخطبة قصة سيدنا آدم - عليه السلام - في الجنة، وعصيانه لأمر الله تعالى، واتباعه لأمر الشيطان، ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَعْتَبٌ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾⁽²⁾، وهنا شبه الزبير وما نال من عقوبة، بما حصل مع سيدنا آدم في الجنة، وشبه عصيان الزبير له كخليفة الله في الأرض، كعصيان آدم عليه السلام الله عز وجل، فهو يقدم العذر لأهل مكة لتأثرهم بمقتل الزبير، على الرغم من إن كليهما صالحان، حيث وصف الزبير في بداية خطبته بأنه "من أحبار الأمة"، وكذلك سيدنا آدم، ألا أنهما رغبوا في التمرد والعصيان فاستحقا الطرد. ونجح الحجاج من خلال هذا التناص أن يضع أهل مكة أمام الأمر الواقع، فلجأ إلى القصص الديني ليدعم القول، فجاءت الخطبة مترابطة المعنى، محكمة الصنعة، بجمال قصيرة معبرة، مما أعطى النص نموذجاً مقنعاً، ولا لبس في معانيها ولا غرابة.

وقد تولى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد المفضل بن المهلب، وكان من الأبطال الشجعان ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء، ويُعدُّ -بحق- من أعظم القادة الفاتحين، الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة الأموية خاصة، ففي عشر سنين فتح أقاليم شاسعة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله -عز وجل-. وكانت بداية فتوحاته عندما وصل خراسان، فقد جمع الناس وخطب بهم قائلاً: "إن الله أحلکم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾⁽³⁾، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁴⁾.

(1) صفوت، مرجع سابق، ج2، ص287.

(2) سورة البقرة: الآيتان (35-36).

(3) سورة التوبة: الآية (33).

(4) سورة التوبة: الآية (120).

ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي يُرزق فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (1) فنتجزوا الأمة موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهويني (2).

حُتَّ الخطبة على الجهاد في سبيل الله، فتصدَّ في أفكارها وجملها إثارة عواطف المستمعين، وشحذ همهم، فاقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (3)، وتخطب الآية القرآنية المقتبسة من سورة الصف أسماع الحاضرين وعقولهم وقلوبهم، بأن الله سيظهر الدين الإسلامي، الدين الذي أرسل به محمد -عليه الصلاة والسلام- رغم كره المشركين، واقتبس الخطيب أيضاً من سورة التوبة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ (4)، لتوجيه الأسماع بعد استجذاب عاطفتها إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو الموضوع الرئيسي للخطبة؛ فهي تؤدي الغرض الذي اقتبست لأجله في مكانها المناسب للخطبة، وهو الحديث عن الجهاد ووعده الله -عزَّ وجلَّ- للمجاهدين في سبيله، وهو يؤدي الغرض والمعنى المطلوب بكلام موثوق لا شك فيه، ثم يأتي الاقتباس الأخير، لوصف حالة من يُقتل في سبيل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (5)، حيث إن نتيجة الجهاد في سبيل الله تعالى محسومة بإحدى الحسنين فلمَّا النصر وإمَّا الشهادة، والشهادة سنَّهَبُ لصاحبها حياة أخرى، وهذا ما عملت الاقتباسات في النص على الوصول إليه من خلال التدرج في النصوص بأسلوب سهل؛ حيث ذكرت أمر الله -عزَّ وجلَّ-، ومن ثمَّ وصفت حالة من يجاهد في سبيله، وبينت منزلة الشهيد عند ربه، وبهذا تكون النصوص المقتبسة قد أعطت النص جانباً فنياً مُحكماً، مساعدة في تشكُّل البناء الكلي للخطبة.

ولما صالح ابن قتيبة أهل خوارزم وسار إلى السند سنة (93هـ) خطب الناس قائلاً: "إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن وهذه السند شاغرة برجالها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحنا عليه (طرخون) وصنعوا به ما بلغكم، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَكَلَّفَ فَإِنَّمَا يَنْكُحْ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فسيروا على بركة الله فإني أرجو أن يكون خوارزم

(1) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

(2) صفوت، مرجع سابق، ج 2، ص 304.

(3) سورة الصف: الآية (9).

(4) سورة التوبة: الآية (120).

(5) سورة آل عمران: الآية (169).

والسند كالنضير وقريظة⁽¹⁾، وقال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾⁽²⁾، وقد جاءت الخطبة بعد صلح، وأن ما يُخشى بعد الصلح دائماً هو نقضه من أحد الأطراف، ولهذا السبب ذكر قتيبة الآية القرآنية: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾⁽³⁾، ويعرف إن نتيجة نقض العهد وخيمة في الدنيا والآخرة، لذلك اقتبس ما يبين للمستمعين قدرة الله عز وجل على نصره عباده كما نصرهم في فارس والروم، ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾⁽⁴⁾، والتي لولا قدرة الله عز وجل لما استطاع المسلمون الانتصار عليهم وفتحها لهم.

ويعد خالد بن عبدالله القسري قائداً أموياً، وأحد خطباء العرب وأجودهم، يمانى الأصل من أهل دمشق، وفي خطبة له يحث بها على التحلي بمكارم الأخلاق، قال فيها: "أيها الناس، نافسوا في المكارم، وسارعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تُعجلوه، ومهما يكن لأحدٍ منكم عند أحدٍ نعمة فلم يبلغ شكرها، فالله أحسن لها جزاءً، وأجزلُ عطاءً"⁽⁵⁾، تناسبت كلمات الخطبة مع موضوعها وهدفها الذي رمت إليه، والخطيب هنا يبدأ النص بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، والتحلي بها، والإسراع إلى المغانم، ليتدرج بالخطبة إلى نهاية الفقرة: فالله أحسن لها جزاءً، وأجزلُ عليها عطاءً، وهذه العبارة جاءت خاتمة للخطبة، وهي النتيجة الحتمية التي لا يُختلف عليها للتحلي بمكارم الأخلاق والعمل بها، واستمد خالد بن عبدالله القسري العبارة من القرآن الكريم، تحديداً من الآية القرآنية: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾⁽⁶⁾، واكتفى الخطيب هنا بما استمده وفهمه من الآية القرآنية واستخدمه في نهاية الخطبة لتأكيد حقيقته أن جزاء من يتحلى بمكارم الأخلاق والعفو عن الناس هو أفضل الجزاء، وهو المُقدم من الله عز وجل لعباده المُتصفين بهذه الصفة، وأدرج الخطيب النص في الخطبة بأسلوب وعظي تبدو قداسته واضحة من خلال كلماته. مما سبق نجد أن الخطابة في العصر الأموي اشتملت على التناسل الديني بجميع أشكاله، كالتناسل المباشر مع القرآن الكريم، أو مع الحديث النبوي الشريف، أو مع القصص القرآني، أو التناسل مع الآيات القرآنية من خلال التلميح والإيحاء، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على براعتهم في اختيار النص، ودمجه، واستخدام كل ما هو مباح لبلوغ مرادهم، وتحقيق ما يهدفون إليه، وبأسلوب مبدع مبهر في الوقت ذاته.

(1) صفوت، مرجع سابق، ج2، 305.

(2) سورة الفتح: الآية (21).

(3) سورة الفتح: الآية (10).

(4) سورة الفتح: الآية (21).

(5) صفوت، مرجع سابق، ج2، ص323.

(6) سورة النبأ: الآية (36).

التناص الأدبي والتاريخي في الخطابة الأموية

يُقصد بالتناص الأدبي "تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً أو نثراً مع نص القصيدة أو الخطبة الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة على الفكرة التي يطرحها الشاعر أو الخطيب". وزخرت الخطابة في العصر الأموي بنماذج نصية احتوت على تناص أدبي من الشعر أو النثر، حيث لجأ الخطباء إلى هذا النوع من التناص في خطبهم يضمنونها بما يتناسب مع الجو الفني والأدبي للخطبة، ومن الأمثلة على التناص مع الشعر ما قاله أبو حامد الأسدي في رده على عبدالله بن الزبير، حيث كان في حضرته مع مجموعة من أهل البصرة، وكان أبو حامد من الخطباء البارعين أصحاب الذوق الجميل في انتقاء أنقى وأصفي الكلام، المتقن بمعناه والملائم بأفكاره، وخطب في حضرة عبدالله بن الزبير، فقال له عبدالله: "اسكت، فوالله لو ددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق رجلاً من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم"، ورد عليه أبو حامد قائلاً: "يا أمير المؤمنين: إن لنا ولك مثلاً، أفأذن في ذكره؟"، قال: نعم، فأكمل أبو حامد قائلاً: "مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى؛ حيث يقول:

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَعَلَّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

أحبك أهل العراق، وأحببت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبدالملك بن مروان⁽¹⁾! واستخدم الأسدي نصاً مقتبساً من معلقة الأعشى، حيث توافقت مع المعنى الذي يرمي إليه في حديثه لعبدالله بن الزبير، فالبيت يتحدث عن المرأة التي أحبها المتكلم، وهي تعلقت بغيره، والذي تعلقت به أحب وتعلق بغيرها، وهذا المعنى كحال ابن الزبير الذي أحبه أهل العراق، وهو أحب أهل الشام الذين أحبوا عبدالملك، وفي هذا استخدام موفق للتضمين، قام الخطيب من خلاله بتجسيد الحالة بأقصر الكلمات وأنسبها، ليتوافق الكلام مع الحالة، ويعبر عنها خير تعبير بأسلوب لفظي مقنع وممتع على حدٍ سواء.

ونقتبسُ هنا ردّاً لمعاوية على الزبير في أحد المواقف من خطبة جاء فيها: "علمت قريش أينما أجود في الإزم، وأمضى في القدم، وأمنع للحرم، لا والله ما أراك منتهياً حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالذحول*، وقدم إليهم الخيول، وخذعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله -ﷺ- إذ مددتم على نساكم السجوف، وأبرزتم زوجته للحتوف، ومقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً، فلم ينجح ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكلة طحن الحصيد بأيدي العبيد، وأما أنت، فأفلت بعد أن خمشتك برائته ونالتك مخالبه، وأيم

(1) الجاحظ، (1968). البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط (1)، دار صعب، بيروت، ص 159.

الله، ليقومنك بنو عبد مناف بتقافها أو لتصيحن منها صياح أبيك بوادي السباع، وما كان أبوك المرهوب جانبه، ولكنه كما قال الشاعر:

أكيلة سرحان فريسة ضيغم فقضضة بالكف منه وحطما⁽¹⁾

جاءت هذه الخطبة في سياق نص عن رد معاوية بن أبي سفيان على تفاخر ابن الزبير بنسبه، حيث ذكر الأنساب والأحساب، ليكون الرد من جنس القول، وذكر معاوية قصة الزبير مع السيدة عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، وقد أسهب في وصف مساوئه، وكيف أنه أخطأ في حق السيدة عائشة رضي الله عنها - وليكون كلامه مؤثراً وذا وقع في النفوس ضمن آخر كلامه بيتاً من الشعر، والذي ذكرناه سابقاً، حيث يرى معاوية أن العوام كالذئب الذي ينتظر ليأكل ما يتبقى وراء الأسد، فيشبهه العوام بالذئب ونفسه بالأسد.

عمد خطباء الدولة الأموية إلى تضمين خطبهم الكثير من الأمثال، التي ساعدت في إحكام البناء الفني للخطبة، وإيصال الأفكار إلى المستمعين، واعتنى من قبلهم العرب بهذه الأمثال، حتى إن القرآن الكريم حوى الكثير منها، حيث ساعدت في شرح صور القرآن الكريم للمسلمين، ومن صور ونماذج الخطب التي احتوت في سياقها على أمثال شعبية أو أدبية، ما قاله معاوية بن أبي سفيان للمغيرة بن شعبة عندما ولّاه الكوفة في جمادى سنة إحدى وأربعين؛ حيث دعا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا، وقال: قال المنتمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُفرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلم

وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يُرضيني، ويسعد سلطاني ويصلح به رعيتي، ولست تاركا إيصاءك بخصلة لا تتحتم عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان، والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه، والإدناء لهم والاستماع منهم، فقال المغيرة: قد جربت وجربت، وعملت قبلك لغيرك، فلم يذمم بي دفع ولا رفع ولا وضع، فستبلو، فتحمد أو تُذم قال: بل نحمد إن شاء الله⁽²⁾.

(1) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج1، ص467.

*الذحول:

(2) الطبري، محمد بن جرير، (1987). تاريخ الأمم والملوك، "المعروف بتاريخ الطبري"، ط(1)، ج(3)، دار الكتب العلمية، ص218.

بدأت الخطبة بمثل يتبعه بيتٌ من الشعر، ثم كلام قريب من الحكمة: "قد يجزى الحكيم بغير تعلم"، واحتوت على المثل: "إن العصا فرعت لذي الحلم"، ويقال هذا المثل لمن إذا نُبِه انتبه، وفي هذا مدح لمن يوجه إليه الخطاب، فالمخاطب هو المغيرة بن شعبة، والسي الكوفية، ولا بد من أن يوصيه، فمعاوية استخدم لذلك أسلوباً فنياً أدبياً جميلاً، وقصة المثل مقترنة بعامر بن الطرب، أحد حكماء العرب المشهورين، لا يعدل بفهمه فهماً، ولا بحُكمه حكماً، فلما طعن في السن أنكروا من عقله شيئاً، فقال لبيته: "إنه قد كُبرت سني، وعرض لي سهو، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي، وأخذت في غيره، فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعصا"⁽¹⁾. ونصوص خطب معاوية متناسقة متكاملة بما اقتبسها من أمثال وشعر، وقد جعل من النص عملاً فنياً مُحكماً من خلال احتوائه على المثل فالشعر فالحكمة.

اعتنى الخطباء في العصر الأموي بالتناص التاريخي بالطريقة نفسها التي اهتموا بها في أي نوع من أنواع التناص الأخرى، والتناص التاريخي هو تداخل نصوص تاريخية مختارة، يلجأ إليها الخطباء يضمنونها ما يتناسب مع خطبهم، لتشكل مع النص وحدة واحدة، ومن أهم الخطب التي احتوت على تناص تاريخي ما قاله عبد الله بن الزبير بن العوام لمعاوية بن أبي سفيان: "أسألكم بالله أتعلمون أن أبي حواري رسول الله، وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله، وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأمه هند آكلة الأكباد، وجدي الصديق، وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر، وعمتي خديجة ذات الخطر والحسب، وعمته أم جميل حمالة الحطب، وجدتي صفية، وجدته حمامة، وزوج عمتي خير ولد آدم محمد -ﷺ-، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب سيصلى نارا ذات لهب، وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته أشقى الأشقين، وأنا عبد الله وهو معاوية"⁽²⁾.

بدأ الخطيب خطبته بذكر مكان أبيه، ومقارنته بأبي سفيان، ثم ذكر أمه ونسبها إلى أبي بكر، وضمن الزبير في خطبته حدثاً تاريخياً متعلقاً بهند أم معاوية فيقول: "وأمه هند آكلة الأكباد"، -علماً أن هنداً عند أهل السنة مضغته ولفظته- ويقصد هنا حادثة هند بنت عتبة عندما أقسمت أن تأكل من كبد حمزة بن عبد المطلب، بعد أن قتل كلا من أخيها وأبيها في غزوة بدر، ثم يعود لذكر حادثة أخرى وهي مقتل جد معاوية من أمه "عتبة بن ربيعة". على يد علي -ﷺ-، يوم بدر، وفي هذا التضمين الذي عمد إليه الخطيب عودة إلى بداية تاريخ الدولة الإسلامية، وخدمة لغرض الخطبة الرئيس وهو التعريض والإهانة لمعاوية، ويلاحظ مدى توافق التضمين مع النص من خلال ذكر نسب الخطيب، ومن ثم ذكر الحادثة التاريخية التي تقلل من شأن المخاطب.

(1) النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، (2004). مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص37.

(2) صفوت، مرجع سابق، ج2، ص160.

خطب الحجاج يوماً فقال "أيها الناس قد أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ، رب دائب مضيع، وساع لغيره، والموت في أعناقكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لما بين أيديكم؛ فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء وكل ما ترونه فإنه ذاهب، هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة، ثم أطلت على قبورهم، أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله، والصراط منصوب، وجهنم تزفر وتتوقد، وأهل الجنة يعمون في روضة يُحبرون، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعمياناً"⁽¹⁾.

بدأ الحجاج خطبته بذكر الموت والعمل المحفوظ والجنة والنار، وبأن الدنيا زائلة، وكل ما فيها ذاهب، ولتأكيد كلامه لجأ إلى تضمين خطبته ما يتناسب وجو الوعظ، فيرجع إلى التاريخ ليذكر شمس عاد وثمود، وهي باقية لكنهم ذهبوا، ثم يتحدث عن التبابعة والأكاسرة، وقصورهم وخزائنهم ونلاحظ مدى توافق التضمين مع الموقف؛ لأن كل من ذكروا قد اختفوا، وبقيت الشمس التي ما غابت، ولا بد من فناء أي شيء عاش أو شيد على الأرض، وجاءت وظيفة التضمين التاريخي هنا، بشكل أدبي فني بارع، وساعد على تكوين الصورة بشكل تام ومتقن، وبأسلوب مُعبّر بذكر المثل الواقعي الذي لا يخفى على أحد، ولا يستطيع إنكاره أحد. ومن خلال النماذج الخطابية التي ذُكرت في هذا الباب، تبين لنا أن الأمويين استخدموا كلاً من التناص الأدبي والتاريخي في خطبهم، فضمنوا الشعر والأمثال الشعبية، والقصص التاريخية، حيث إن هذه النصوص وما وراءها من قصص وحكم، وصور فنية منقنة، وبلاغة أدبية - غدت المعنى الفكري للخطبة، وساهمت في إيصال المعنى المراد إلى المستمع، كما سهلت عليه استنتاج الفائدة المرجوة أو المعلومة التي احتوتها الخطبة.

(1) صفوت، مرجع سابق، ج2، ص301.

الفصل الرابع



السمات البديعية في الخطابة الأموية

- توطئة
- علم البديع
- السجع
- التضاد (الطباق والمقابلة)
- التكرار
- التورية
- الازدواج

توطئة

لقد جاءت البنيوية البديعية بوصفها بناءً نقدياً، لتركز على البناء الأدبي من حيث هو لغة خاصة تتربط عناصرها بحيث لا يمكن استبدال كلمة بأخرى أو حذف عنصر أو اختزال النص دون أن يختلّ توازنه، فالنص شبكة من العلاقات الداخلية الخفية التي تربط جملة الوحدات البنائية. واللغة الأدبية لغة بنيوية تختلف عن اللغة الفلسفية والدينية والعلمية التي يمكن استبدالها أو اختزالها؛ لأنها لغة اصطلاحية تؤدي معاني محددة. ويعمل التحليل البنيوي البديعي باعتباره منهجاً لغوياً على اكتشاف البنى أولاً وتحليلها ثانياً بالتدرج من البنية السطحية من خلال المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية إلى البنية الدلالية العميقة، فالبنية ليست مجرد شكل وإنما مضمون أيضاً، وهي جوهر جميع أنواع الأدب على مدى العصور، وركز عليها الباحثون؛ من حيث تحليلها لبيان مدى البراعة التي يصل إليها أدباء عصر ما، وكذلك الخطابة فبنيته لا تخرج عن باقي الآداب في طريقة تحليلها، وتركيبها⁽¹⁾.

وقد انصبَّ اهتمام المحلّين الأسلوبيين والمتخصّصين في الأدب على لغة الأدب؛ لأنها في نظرهم أساس تكوينه، ولم يهتموا في تحليلاتهم بالأفكار التي يتكون منها، ولا بالمشاعر والآراء التي يُعبر عنها، بل اهتموا بالجسد اللغوي للنص الأدبي، وانطلقوا في تحليلاتهم للنصوص الأدبية من شعر وكتابة ورسائل وخطابة وغيرها من الألوان الأدبية من مُطلق اللغة، وليس مما وراء اللغة من عناصر لا ترتبط مباشرة بمادة الأعمال الأدبية. ويصبُّ المحلل البنيوي جُلَّ اهتمامه على العناصر التي تجعل الأدب أدباً، تلك العناصر التي يَعُدُّها ماثلة في النص، والتي تُحدد جنسه الفني، وتتكيف مع طبيعة تكوينه⁽²⁾، والخطابة كغيرها من ألوان الأدب تفتح المجال أمام مبدعيها ومتقنيها في أن يتفننوا في تركيبها وبنيتها الفنية واللغوية والأدبية، وهي في الدرجة نفسها من الأهمية التي نالها الشعر، لما لها من تأثير على مدى العصور، وخصوصاً في العصر الذهبي لها وهو العصر الأموي.

(1) العاكوب، عيسى علي، (1988). نظرية الأدب في القرن العشرين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص 143.

(2) بُشْبندر، ديفيد، (1996). نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 56.

علم البديع

يُعدُّ علمُ البديع أحدَ فروع البلاغة، وهو العلم الذي يُثبتُ من خلاله الخطباء والعلماء والشعراء والأدباء قدراتهم اللغوية في تطويع المفردات والتراكيب كي تكون متماشية مع المعنى والفكرة التي يسعون إلى إيصالها للمتلقى.

وتكاد نصوص الخطابة في العصر الأموي لا تخلو من فنون علم البديع؛ إذ إنَّ المحسنات اللفظية والمعنوية كالسجع والتضاد والتكرار والتورية و الازدواج والجناس والطباق وغيرها كانت تصدرُ من الخطباء المفوهين عفو الخاطر فلا تؤثر على صحة المعنى وجودته، في حين أن هذه المحسنات كان يشوبها شيء من التكلف في عصور لاحقة كما يُلاحظ ذلك عند بعض كتاب المقامات المتأخرين.

السجع

يُعدُّ السَّجْعُ ضرباً من ضروب المحسنات البديعية اللفظية التي عُنيَ بها الخطيب في جميع العصور، ويراد به "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد، والسجع يضيف على النص الذي يردُّ فيه قيمة موسيقية، بوصفه نوعاً من التنغيم، فهو يقوم أصلاً على تماثل إيقاعي في نهاية المقاطع، وتكرارها على نحو منتظم؛ ذلك أنَّ المقاطع تأتي على ألفاظ متوازنة متعادلة، وكلمات متوازنة متماثلة، والخطباء يحبذون السجع ويؤثرونه في خطبهم؛ لأنَّ السجع هو قوام الكلام المنثور، وعلو رتبته، وخطباء هذا العصر لا يأتون بالسجع إلاَّ عفو الخاطر، منقاداً للمعنى لا كلفة فيه⁽¹⁾، والسجع هو "النثر المققى ذو الإيقاع"⁽²⁾. أو هو نوع من أنواع النثر يتميز باستخدام وحدات موزونة، عادة تكون قصيرة، يتراوح عدد مقاطعها ما بين أربعة إلى ثمانية مقاطع، وأحياناً أكثر من ذلك، وتنتهي هذه الوحدات بقافية، وتنقسم هذه الوحدات الموزونة إلى مجموعات بحيث يكون لكل مجموعة قافية واحدة، وفي هذه المجموعات لا يشترط أن تتساوى الوحدات في عدد مقاطعها؛ لأنَّ العنصر الأساسي في السجع هو التقفية، وعلى هذا نستطيع أن نعرِّف السجع بأنه نثر موزون مققى"⁽³⁾، وعرفه ابن الأثير بقوله: "هو تواطؤ الفصول في الكلام المنثور على حرف واحد"⁽⁴⁾.

يقسم السجع إلى ثلاثة أقسام بحسب أطوال الفصل التي يتكون منها الكلام المسجوع؛

حيث تتكوّن كل فقرة من فصلين؛ أول وثان، وهي كالاتي⁽⁵⁾:

(1) الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (1971). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، تحقيق: محمد حسين

شمس الدين، ج(2)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص301-302.

(2) عبدالمطلب، محمد، (1997). *أصول البلاغة العربية*، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ص150.

(3) المرجع نفسه، ص151.

(4) ابن الأثير، ضياء الدين، (د.ت). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق: أحمد الحوفي، دار نهضة

مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ص271.

(5) المرجع نفسه، ص255.

- أن يكون الفصلان متساويين، لا يزيد أحدهما على الآخر، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ

﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾⁽¹⁾، مع ضرورة الإشارة إلى أن السجع في القرآن يقال عنه فاصلة

قرآنية أو فواصل، وفي النثر سجعاً وفي الشعر قافية.

- أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول، ولا يخرج به عن الاعتدال خروجاً كبيراً، كقوله

تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾^(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا

وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْفُؤا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾⁽²⁾.

- أن يكون الفصل الثاني أقصر من الأول، وهو عيب فاحش (بحسب رأي ابن الأثير)، وسبب

ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يأتي الفصل الثاني

قصيراً عن الأول، فيكون كالشيء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء

إلى غاية فيعثر دونها.

فلعل من أهم النماذج على استخدام السجع في العصر الأموي، ما دار بين عبدالله بن

عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، عندما سأل معاوية عبدالله عن الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان

وعلي، حيث دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فلما سلم وجلس، قال له

معاوية: إني أريد أن أسألك عن مسائل، قال: سل عما بدا لك، قال: "ما تقول في أبي بكر؟"

قال: "رحم الله أبا بكر، كان والله للقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبذنبه عارفاً، ومن الله

خائفاً، وعن الشبهات زاجراً، وبالمعروف أمراً، وبالليل قائماً، وبالنهاري صائماً، فاق أصحابه

ورعاً وكفافاً، وسادهم زهداً وعفافاً، فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه" قال معاوية: إيه

يا ابن عباس، فما تقول في عمر بن الخطاب؟ قال: "رحم الله أبا حفص عمر، كان والله حليف

الإسلام، ومأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء، ومَعْقِلُ الحنفاء،

قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وأمن العباد، فأعقب الله

على من ينقصه اللعنة إلى يوم الدين" قال: فما تقول في عثمان؟ قال: "رحم الله أبا عمرو كان

والله أكرم الجعدة، وأفضل البررة، هجّاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضاً عند

كل مكرمة، سباقاً إلى كل منحة، حياً أياً وفيأ، صاحب جيش العسرة، وختن رسول الله وآله،

(1) سورة الضحى: الآيتان (9-10).

(2) سورة الفرقان: الآيات (11-13).

فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين" قال: فما نقول في علي؟ قال: "رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحمل الحجا، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف العلا، للورى داعياً، إلى المحجة متمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارتدى، وأبر من انتعل وسعى، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى، صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد؟ وأبو السبطين فهل يقارنه بشر؟ وزوج خير النسوان فهل يفوقه قاطن بلد؟ للأسود قتال، وفي الحروب ختال، لم تر عيني مثله ولن ترى، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التتاد"⁽¹⁾.

حقّق الخطيب التوازي في وصفه للخلفاء الراشدين، من خلال مدحهم بعبارات قصيرة مسجوعة، أو غلب عليها السجع، رغم أن النص يحوي بعض الاختلاف في السجع في بعض أماكنه، وقد يكون لمحاولته الابتعاد عن التصنع بالسجع له تأثير خاص أيضاً، لإعطاء الجمل القصيرة ترابطاً موسيقياً يتحقق من خلال تشابه الصوت، بانتهاء كل جملة بلفظة مساوية للفظة في الجملة الأخرى بالوزن والفاصلة والإعراب: "تالياً، ناهياً، عارفاً، خائفاً، زاجراً. ويلاحظ أنّ الفقرة بأكملها تكون من وحدة واحدة، ظهر فيها السجع القصير، فبدأت الوحدة بسجعتين، ثم تطول السجعات في نهاية الوحدة لتتشكل من ثلاث أو أربع سجعات مع الالتزام بالفواصل، وللسجع أهمية تتحقق من خلال النص، وهو التوافق بين اللفظ والمعنى، باتباع اللفظ للمعنى، فالقرآن كلمة تبتعثها كلمة (تالياً) لتدل على تلاوته له، والمنكر (ناهماً) لتدل على الابتعاد عنه، وبذنبه (عارفاً) لتدل على محاسبة نفسه، والله (خائفاً) لتدل على التقوى.

تسهم الفقرات المسجوعة في الوصول إلى معنى الخطبة، وجذب انتباه السامعين لها، وخصوصاً إذا تميزت بصغرها، وأعطت النص بُعداً موسيقياً متناسباً وجو الخطبة، من خلال تقارب الألفاظ بالوزن والصوت، كما تجد الأذن السامعة في الفقرات المسجوعة متعة وجمالاً موسيقياً خفياً ينبع من اختيار الخطيب لكلماته، وما بينها من تلاؤم في الأحرف والحركات، ولعل التوازي اللفظي الدلالي من أهم النتائج التي نجنيها من الخطب التي تحتوي على الفقرات المسجوعة، وذلك من خلال تكرار التراكيب المتقاربة في الوزن والمعنى، والتي تدل على المعنى بألفاظ قصيرة مُعبّرة.

(1) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج2، ص92.

ويظهر هذا جلياً في وصف كل من: شبّه بن عقّالة، وخالد بن صفوان، لكل من جرير والفرزدق والأخطل؛ حيث إن وصفهم لهم يُعدّ من أبرز نماذج النصوص الخطابية التي تحقق فيها التوازي من خلال الفقرات المسجوعة، فقد طلب هشام بن عبد الملك من شبّه أن يصفهم له فقال: "أما جرير فيغرف من بحر، وأما الفرزدق فينحت من صخر، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر"، فقال له هشام: "ما فسرت لنا شيئاً نحصله"، ثم طلب من خالد بن صفوان أن يصفهم له فقال: "إن أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً وأحسنهم عذراً وأسيرهم مثلاً وأقلهم غزلاً وأحلامهم عللاً الطامي إذا زخر، والحامي إذا زار، والسامي إذا خطر، الذي إن هدر قال، وإن خطر صال، الفصيح اللسان الطويل العنان الفرزدق. وأما أحسنهم نعتاً وأمدحهم بيتاً وأقلهم فوناً الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع الأخطل. وأما أغزرهم بحراً وأرقهم شعراً وأهتكم لعدوه سترأ الأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن طلب لم يلحق جرير، وكلهم ذكي الفؤاد، رفيع العماد، واري الزناد، فقال له مسلمة بن عبد الملك: "ما سمعنا بمتك يا خالد في الأولين، ولا رأينا في الآخرين وأشهد أنك أحسنهم وصفاً وألينهم عطفاً وأعفهم مقالاً، وأكرمهم فعلاً" فقال خالد: أتم الله عليكم نعمه، وأجزل لديكم قسمه، وأنس بكم الغربية، وفرج بكم الكرية، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الغراس، عالم بالناس، جواد في المحل، بسام عند البذل، حلیم عند الطيش في ذروة قريش، ولباب عبد شمس، ويومك خير من أمس، فضحك هشام، وقال: ما رأيت كتحلصك يا ابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم، حتى أرضيتهم جميعاً، وسَلِمْتُ منهم" (1).

التضاد (الطباق)

يُشتق التضاد في اللغة من الأصل الثلاثي (ضَدَدَ) "ضَدَّ دَ دَ"، وهو من مفردات التقابل، ويعني أيضاً التطبيق والتكافؤ، وهو الجمع بين متضادين؛ أي معنيين متقابلين في الجملة، بأن يكون بينهما تقابل وتناظر في بعض الصور، والتضاد في معاجم اللغة بمعنى المخالفة: و"الضدّ"، هو كل شيء ضادّ شيئاً ليغلبه، والسواد ضدّ البياض، والموت ضدّ الحياة (2)، وفي الاصطلاح التضاد هو الجمع بين اللفظين الدالين على المعنيين المتضادين حقيقة أو تقريباً، وقد عرّف بالجمع بين ضدّين مختلفين كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والسواد والبياض (3).

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، (د.ت) الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط(2)، ج(8)، ص86.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة ضد.

(3) الطيبي، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، (1986). التبيان والتبيين، تحقيق: د. توفيق الفيصل وعبد اللطيف لطف الله، ط (1)، دار ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ص284.

يُعَدُّ التضاد ظاهرة أسلوبية مهما تعددت مسمياته، وهذه الظاهرة تعتمد الكيفية التي يخرج بها النسق التركيبي في كشف العلاقات الدلالية، والانفتاح على المعاني المضيقية والتداولية، فضلاً عن أنَّ مفهوم هذا الفن ودراسته يمثل الوقوف على آية الحدس الفني والاستدلالي التي تربط الجمالية الفنية بمعالجتها النفسي والموضوعي الذي يثير المستمع. وبالتضاد -بوصفه أحد فروع علم البديع المهمة-، تبرز الأشياء وتتأكد المعاني، وتجد لها إلى الوجدان سبيلاً، فالضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتمايز الأشياء، ويبدو تأثيرها⁽¹⁾. قال صاحب القصيدة اليتيمة التي نسبت لأبي الشَّيْص ولدوقلة المنبجي، مع أن هذه الأبيات لاتعد شاهداً؛ لأنها قريبة عهد، لكنها دالة على تزيين النصوص بالتضاد:

الوجه مثل الصُّبْح مبيضٌ والشَّعْرُ مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسناً والضد يظهر حسنه الضد

فالتضاد أحد أعمدة البديع، وعليه المعولُّ في التوكيد وتقرير المعاني وتثبيتها في النفوس، زيادة على تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثر، وكشف القيمة الجمالية التي تنشط الحركة التأويلية في النص، فضلاً عن توليدة إيضاحية، وإبانة في المفردات المتضادة في النسق المتضمن لهذه المفردات، وعليه فإنَّ بنية التشكيل اللفظي للتضاد تكثف البحث الذهني عند القارئ لكي يقف على حدود المعنى العميق⁽²⁾.

قام الكثير من الباحثين بدراسة كيفية تقسيم التضاد، فهناك المشهور منه وهو تقسيمه إلى التضاد الإيجابي والسلبي، أو مطابقة الإيجاب والسلب، وهما كالآتي⁽³⁾:

- مطابقة الإيجاب: وهي الجمع بين المتضادين، أي بين معنيين متقابلين في الجملة، ويكون إما بلفظتين من نوع واحد كاسمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسَبَهُمْ إِنْفَاظًا وَهُمْ رُوْدٌ﴾⁽⁴⁾،

أو فعلين كما في قوله تعالى: ﴿تُوْفِي الْمَلِكُ مَن نَّشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكُ مِمَّن نَّشَاءُ وَتُعْزُّ مَن نَّشَاءُ وَتُنْزِلُ

مَن نَّشَاءُ﴾⁽⁵⁾، أو من حرفين كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾⁽⁶⁾.

(1) بسيوني، عبدالفتاح فيود، (2010). من بلاغة النظم القرآني، ط (1)، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ص330.

(2) بسيوني، عبدالفتاح فيود، مرجع سابق، ص336.

(3) مطلوب، أحمد، (1975). فنون بلاغية (البيان - البديع)، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت ص270.

(4) سورة الكهف: الآية (18).

(5) سورة آل عمران: الآية (26).

(6) سورة البقرة: الآية (286).

– مطابقة السلب: وهي المطابقة التي يختلف فيها اللفظان إيجاباً وسلباً، أو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي، كقول المتنبي:

ولقد عرفت، وما عرفت حقيقة ولقد جهلت، وما جهلت خمولاً

أضاف بعض النقاد قسماً ثالثاً إلى القسمين السابقين وهو إيهام التضاد، ويعني أن تتوهم التضاد بين لفظين، وهما ليسا متضادين؛ أي أن تُعبّر عن معنيين غير متضادين بلفظين متضادين، كقول دعلج بن علي الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي⁽¹⁾

وضحك المشيب في هذا البيت يعني به الشاعر كثرة الشيب في الرأس، وظهوره بشكل واضح، وهي لا تتضاد مع بكى.

يخلط كثيرون بين التضاد والمقابلة، وللتمييز بينهما فقد فرق البلاغيون بين التضاد والمقابلة من وجهين⁽²⁾:

الأول: ألا يكون التضاد إلا ضدّين غالباً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْصَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾⁽³⁾، والمقابلة تكون غالباً بالجمع بين أربعة أضداد في صدر الكلام، وضدّين في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر، وخمسة في العجز. الثاني: ألا يكون التضاد إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها كأن العام يشمل الخاص، وليس العكس⁽⁴⁾.

استعمل الخطباء في العصر الأموي التضاد في كثير مما ورد عنهم من نصوص أدبية، خاصة في الشعر والخطابة، ولعل من أبرز خطباء العصر الأموي الذين وُجد في المأثور عنهم، الكثرة في استخدام التضاد- الحجاج بن يوسف الثقفي؛ حيث خطب لمّا قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعددهم فقال: "أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعلي أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه، إنّ للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه

(1) الخزاعي، دعلج محمد بن علي، (1983). شعر بن دعلج، تحقيق: عبد الكريم الأشر، ط(2)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ص204.

(2) مطلوب، أحمد، فنون البلاغة (البيان - البديع)، مرجع سابق، ص275.

(3) سورة الحج: الآية (66).

(4) مطلوب، أحمد، فنون البلاغة (البيان - البديع)، مرجع سابق، ص277.

بسفك دمه، إني أنذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أعذر، وأتوعد، ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولا تكم، ومن استرخى لبيه ساء أذبه، إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائم في يدي، ونجاده في عنقي، وذبابه قلادة لمن عصاني، والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه"⁽¹⁾.

استعمل الحجاج في خطبته هذه التضاد، ولعل التهديد والتوعيد الذي جاء به الحجاج إلى أهل البصرة كان له الدور الأكبر في ظهور مثل هذا اللون البلاغي في هذه الخطبة؛ حيث أسبق العاقبة للحادثة التي سيعاقب عليها الحجاج من أخطأ من أهل البصرة، فقال: "من أعياه داؤه فعندي دواؤه"، وهنا التضاد بين الإعياء والدواء، وهذا تضاد إيجابي في الفعل، وهو فعل الإعياء، وقال أيضاً: "ومن استطال أجله فعلي أن أعجله"، والتضاد هنا بين استطالة الأجل، وتعجيلها، وقال: "من ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله"، والتضاد هنا بين ثقل الرأس ووضع عنه. وهناك كلمات متضادة كثيرة استخدمها الحجاج في خطبته ومنها: (سئمت: صحت)، (رفعه: وضعه)، (تسعه: تضيق)، (العافية: الهلكة)، ولعل فاعلية التضاد هنا هي في الحال التي أُلقيت فيها الخطبة. كما يصور الحجاج من خلال التضاد في المفردات، تصويراً فنياً رائعاً؛ وذلك عندما استعمله إزاء كل من تسول له نفسه عصيان أمره، وكان هذا واضحاً في نهاية خطبته عندما قال: "إني أنذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أعذر، وأتوعد، ثم لا أعفو"، فهو في الخطبة يبين ووضح مبادئ عصيانه التي يراها هو، وما يقابلها من عقوبة، والتدرج -الذي استخدمه الحجاج في التهديد من التلميح إلى التهديد المباشر، والتنويع في استخدام الألفاظ المتضادة والتعابير- أعطى النص عمقاً فنياً عملاً على التدرج والتنامي بأسلوب مُحكم يؤدي الهدف والغاية منه.

تميزت خطب الحجاج بالتهديد والوعيد، وكان أسلوبه يدل على عقوبته. وفي خطبة له، عندما أراد أن يحج بيت الله الحرام، استخلف محمداً ولده على أهل العراق، ثم خطب فقال: "يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق، إني أريد الحج بيت الله الحرام، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً هذا، وما كنتم له بأهل، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله في الأنصار، إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم"⁽²⁾.

(1) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج2، ص292.

(2) مطلوب، أحمد، فنون البلاغة (البيان - البديع)، مرجع سابق، ج2، ص298.

وقد خالف الحجاج في خطبته ما وصّى به الرسول عليه الصلاة والسلام الأنصار، وهنا عزّر الحجاج خطبته بالمثل، فعرض على أهل العراق ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام مع الأنصار في أن يقبل من المحسن ويتجاوز عن المسيء، فكانت وصية الحجاج لابنه عدم القبول من المحسن، وأن لا يتجاوز عن المسيء، والتضاد هنا سلبي، حيث استخدم النفي للفظ نفسه، كـ: (يقبل: لا يقبل)، و(يتجاوز: لا يتجاوز)، والتضاد في نص خطبة الحجاج جاء تأكيداً للمعنى الذي يهدف إليه، وجاء الأسلوب مطابقاً لواقع الحال، كما كوّن التضاد قيمة فنية أسهمت في تأسيس بناءٍ مُحكم للنص، من خلال ذكر الفعل وضيده، أو بالأصح الحدث وضيده، بالجوء إلى الكلام الثابت والمثال الصريح، والتضاد عزّر بالحديث الذي صدر عن الرسول ومقابلته بما وصّاه الحجاج لابنه.

التكرار

التكرار هو الإعادة، كرّر الشيء وكرّره: أعاده مرّة أخرى، ويقال: "معنى كرّر الشيء أي كرّره فعلاً كان أم قولاً، والتكرار مصدر كرّر، وهو أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يُعيد به بعينه سواء أكان اللفظ متفق المعنى أم مختلفاً"⁽¹⁾، ويعرّف التكرار على أنه: "تكرير كلمة فأكثراً بالمعنى واللفظ، إما للتوكيد أو لزيادة التنبيه أو للتحويل أو للتعظيم، أو للتأدّب بذكر المكرر"⁽²⁾.

يقسم التكرار إلى قسمين:

الأول: يوجد في اللفظ والمعنى، والثاني يوجد في المعنى دون اللفظ، فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكمن قال: أطعني ولا تعصني، فإن الأمر بالطاعة هو النهي عن المعصية، ولا فائدة من التكرير إلا للتوكيد؛ أي أن اللفظين دلاً على المعنى نفسه، كأن نقول: أحمد شجاع وليس بجبان⁽³⁾.

استخدم الخطباء الأمويون التكرار في خطبهم، ومن النماذج الدالة على ذلك ما قاله خالد بن عبدالله القسري في الحجاج عندما أمره سليمان بن عبد الملك بشتم الحجاج ونشر عيوبه، وإظهار البراءة منه؛ حيث قال فيه: "إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً، وكان الله قد علّم من غيّه وخبثه ما خفي على ملائكته، فلما أراد الله فضيحته ابتلاه بالسجود لأدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه، وإنّ الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غيّه وخبثه على ما خفي عنّا، فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين فالعنوه لعنه الله"⁽⁴⁾.

(1) المرتضى الزبيدي، تاج العروس، مكتبة الوراق، مادة كرر.

(2) المدني، علي صدر الدين معصوم، (1986). أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، ج5، مكتبة العراق، العراق، ص345.

(3) المرجع نفسه، ج5، ص241.

(4) ابن عبد ربّه، الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص220.

هنا جاء تكرار الكلمة "كان" للتأكيد على ما يصف الخطيب به الحجاج، فهو يقول كان الشيطان ملكاً، وكذلك الحجاج كان مقرّباً من الخليفة، وعندما أمر الله عز وجل الشيطان بالسجود لأدم تبيين له خداعه، وكذلك الأمر بالنسبة للحجاج.

خطب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه حيث قال: "الحمدُ لله الذي ما شاء صنَع من شاء أعطى ومن شاء منَع ومن شاء خَفَضَ ومن شاء رَفَعَ، إنَّ مُعاويةَ بنَ أبي سفيان كان حَبِلاً من حبال الله مدّه الله ما شاء أن يمدّه ثم قطعَه حين شاء أن يقطعَه، فكان دون من قبله وخيراً ممن يأتي بعده ولا أركيه وقد صار إلى ربّه؛ فإن يعفُ عنه فبرحمته وإن يُعذبه فبذنبه. وقد وُلِّيتُ بعده الأمرَ ولستُ أعتذر من جهل ولا أني عن طلب"⁽¹⁾، حيث كرر يزيد بن معاوية كلمة (شاء) سبع مرات، ولعل الظرف الذي جاءت فيه الخطبة كان سبباً في تمحور خطبة يزيد وتركيزه على مشيئة الله تعالى وقدره، فالله عز وجل شاء أن يكون معاوية الخليفة، وشاء أن يموت، وتكرار كلمة شاء هنا جاءت تأكيداً وإيماناً بأن موت معاوية بن أبي سفيان هو بمشيئة الله عز وجل، وأن كل ما يجري في هذا الكون هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته شيء، وفي الخطبة تسليم بوحداية الله عز وجل، وكون أنها جاءت في مقدمة خطب يزيد بن معاوية، فهي دليل على النمط القيادي الذي اتبعه خلال خلافته الذي يقوم على الوعظ والإرشاد في ظاهره إلا أنه شاب ذلك شيء من عدم الاتزان والحكمة في التعامل مع الرعية.

صعد عمر بن عبد العزيز المنبر بعد توليه الخلافة وخطب قائلاً: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيًّا، وَلَمْ يُنَزَّلْ بَعْدَ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا، فَمَا أَحَلَّ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا حَرَّمَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا لَسْتُ بِقَاضٍ، وَلَكِنِّي مُنْقَدٌّ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْكُمْ، غَيْرَ أَنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا. أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، أَلَا هَلْ أَسْمَعْتُ. جاء في الخطبة تكرار كلمة (لست) أو (ليس) أربع مرات، حيث إن من أهم ما يميز منهج عمر بن عبدالعزيز في سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة ونشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر في ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهي حفظ الدين وسياسة الدنيا به، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، وجاء نفي بعض الصفات في خطبته عنه باستعماله "ليس" مكررة أكثر من مرة تأكيداً منه على المنهج الذي أراد أن يفهمه الرعية عنه من خلال فقرات الخطبة، فهو ليس بالقاضي، والرعية ينظرون إلى الخليفة على أنه القاضي، فيزيدهم اطمئناناً إليه عندما يقول أنا لست بقاضٍ، ولست بمبتدعٍ، ولست بخير منكم، وليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل.

(1) ابن عبد ربّه، الأندلسي، العقد الفريد، ج5، ص124.

التورية

تأتي التورية مصدراً لوريت الخبر تورية: إذا سترته، وأظهرت غيره. واصطلاحاً أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان؛ أحدهما قريب غير مقصود، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِأَيِّلٍ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾⁽¹⁾، وهنا جاءت كلمة جرحتم بمعناها البعيد وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سُميت التورية إيهاماً وتخبيلاً⁽²⁾، والتورية باختصار المعنى القريب المتبادر للذهن، وهو غير المقصود، والمعنى البعيد غير المتبادر للذهن وهو المقصود.

جاءت الخطب الأموية زاخرة بالسّمات والمحسنات البديعية كالتورية؛ حيث وردت في خطبة لمعاوية بن أبي سفيان، قال فيها: "إني من زرع قد استحصد، وقد طالت إمرتي عليكم حتى ملثموني، وتمنيت فراقكم، وتمنيت فراقني"⁽³⁾، حيث استخدم معاوية بن أبي سفيان كلمتي زرع واستحصد، ومعناها القريب إن كل ما تزرعه من ثمار تحصده، ومعناها البعيد - وهو المقصود - أنتم يا من تستمعون إلى الخطبة؛ أي إن ما يحدث للمرء من خير فهو حصاد ما زرع من أعمال وأفعال، وما يحدث له من شر فهو حصاد شره، وفيه نوع من التحذير.

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء، فأغضبه، فقام فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسياف حصيداً فإن الله فيكم ذبيحاً بعثمان أرجو أن يؤليني الله نسكه. إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة فأعطى كل ذي حق حقه، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطئة، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه نعمة من الله فيكم ومئة منه عليكم. وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عقو مئاً، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق بإحياء الفتن وإماتة السنن، فأطاكم والله وطأة لا رمق معها حتى تُنكروا مئى ما كنتم تعرفون، وتستخشونوا ما كنتم تستلبنون وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور"⁽⁴⁾.

(1) سورة الأنعام، الآية (60).

(2) الهاشمي، أحمد، (د.ت). جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع، دار أحياء التراث، ط(12)، بيروت، لبنان، ص363.

(3) الميرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (1997). الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج4، دار الفكر العربي، القاهرة، ص92.

(4) ابن عبد ربه، الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ج4، ص222.

حيث جاء في نص الخطبة قول عتبة: "يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً"، والحصاد هو جمع المحصول، وجاءت حصيداً هنا لمعناها البعيد وهو جمع السيوف، وقد نبّه عتبة أهل مصر إلى ضرورة أن تبقى السيوف مهياً لأخذ الحق الذي ذكره في تنمة خطبته: "فإنّ الله فيكم ذبيحاً بعثمان"، وجاء أيضاً في خطبة عتبة قوله: "وقد بلغنا عنكم نجم قول"، ونجم القول هو ما اشتهر على السنة الناس من الحديث، والنجم هو ما سطع في السماء من أضواء، وهنا جاءت بمعناها البعيد ما سطع على ألسن الناس من حديث، وجاء أيضاً في قول عتبة: "بإحياء الفتن وإماتة السنن"، حيث تعني إحياء إعادة الروح، وهنا جاءت تورية بمعنى إعادة وإيقاظ الفتن إلى ما كانت عليه سابقاً، وإماتة جاءت بمعناها البعيد وهو الابتعاد عن السنن، ولعل عتبة يريد أن تصل رسالة إلى أهل مصر مفادها التحذير عن التكاسل في الوقوف إلى جانبهم في ثأرهم، وهو ما جاء صريحا على لسانه: "فأطأكم والله وطأة لا رمق معها حتى تُنكروا مني ما كنتم تُعرفون وتستخشنون ما كنتم تستأثنون"، فكانت الصياغة صريحة للتهديد المباشر، والتخويف من مغبة مخالفة أمره.

الازدواج

يُقصد بالازدواج، تجانس اللفظين المجاورين، نحو: من جدّ وجَدّ، ومن لَجّ ولَجّ. والازدواج هو أن يأتي الخطيب في ما يقول من أوله إلى آخره بجمل، كلُّ جملةٍ فيها كلمتان مزدوجتان، كلُّ كلمةٍ إما مفردة أو جملة، وأكثر ما يقع هذا النوع في أسماء مثناة مضافة، أو أن يؤتى بكلمتين صورتها واحدة، ومفهومها واحد⁽¹⁾.

جاء في خطب الأمويين بعض النماذج الخطابية التي استُخدم فيها الازدواج في اللفظ، فقد خطب عمر بن عبدالعزيز يوم عيد، فكبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله -عزّ وجلّ- ثم قال: "يا أيُّها الناس، إني وجدت هذا القلب لا يُعبرُ عنه إلا اللسان، ولعمري، وإنّ لعمري مني لحقاً، لوددت أنه ليس من الناس عبد ابنتي بسعة، إلا نذر قطيعاً من ماله، يجعله في الفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل، بدأت أنا بنفسي وأهل بيتي، ثم كان الناس بعد"⁽²⁾. وقد استخدم عمر بن عبدالعزيز كلمة لعمري مرتين هنا، الأولى جاءت للقسم، والثانية قصد بها العُمُر؛ أي السن وعدد السنين. والمعروف عن عمر بن عبدالعزيز أنه كان زاهداً في نفسه، لكنّ لعمري الأولى جاءت قاسمة في أهله بأن يجعل كل من كان عنده سعة في الرزق جزءاً من ماله يقتطعه للفقراء والمساكين، وجاءت لعمري الثانية تلميحاً بأن لنفس الإنسان حقاً عليه.

(1) الهاشمي، مرجع سابق، ص 330.

(2) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج2، ص206.

وخطب يزيد بن الوليد عندما قتل الوليد بن يزيد فقال: "أيها الناس، إن لكم علي ألا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكرى نهراً، ولا أكثر مالاً، ولا أعطيته زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم، فإنَّ فَضْلَ فَضْلٍ نقلته إلى البلد الذي يليه؛ ممَّن هو أحوج منه إليه، ولا أجركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم. وقد جاء الأزواج هنا في كلمتي (فَضْلٌ فَضْلٌ) والمقصود إنَّ ما يزيد من مال بلد ما سيقوم بنقله إلى البلد الذي يليه، فجاءت فَضْلُ الأولى بمعنى زاد عن الحاجة، وجاءت فَضْلُ الثانية بمعنى المال والزاد.

وجُمعت الكوفة والبصرة تحت ولاية زياد بن أبي سفيان بعد مقتل المغيرة بن شعبه، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد فإنَّنا قد جَرَّبْنَا وجَرَّبْنَا وِسْئَنَا وساسنا السائسون، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله بالطاعة اللينة المشبه سرها بعلانيتها، وغيب أهلها بشاهدهم، وقلوبهم بألسنتهم، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلاَّ أمضيته على أدلاله، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر"⁽¹⁾. وقد جاء الأزواج في كلمتي (جَرَّبْنَا وجَرَّبْنَا) ويقصد الخطيب زياد هنا: أنه تولى أمور ولاية البصرة، حيث عرفه الناس، وكيف يتعامل معهم باللين واللطف، ويتعد في التعامل مع الرعية عن العنف، فجاءت الأولى بمعنى أن تعاملنا في الولاية مع غيركم، والثانية جاءت بمعنى أن غيركم قد رأى منا ما في ولايتنا، وفي قول زياد أيضاً: "وسِئَنَا وساسنا السائسون"، جاءت (سِئَنَا) الأولى بمعنى أنه عاش أمراً والياً، والثانية (سَاسَنَا) جاءت بمعنى أنه عاش مولى مأموراً، فتولدت الكلمتان من الجذر نفسه وتتبعتا في الجملة، ولكنَّ المعنى والمقصود في الحالتين قد تغيَّر.

حقاً أن الأزواج أدى إلى تماسك النصوص الأدبية، وترابطها، وكان له أهمية، وقيمة أسلوبية عالية في النص الخطابي الأموي.

(1) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج2، ص275.

الفصل الخامس



أدوات الصورة الفنية في الخطابة الأموية

- توطئة
- التشبيه
- الاستعارة
- المجاز
- الكنايات بأنواعها

توطئة

تُعدُّ أدوات الصورة الفنية من أهم آليات التشكيل والتنويع الأدبي في الخطابة والشعر، وغيرهما من فنون الأدب المعروفة، والتي فُتِنَ بها علماء اللغة العربية قديماً وصاغتھا الدراسات اللسانية الحديثة، كما أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنفسية الخطيب أو الشاعر أو الأديب أو الكاتب المتفاعل مع الجو الذي يمارس فيه أدبه، ويعبر من خلالها عن رؤاه ومشاعره وانفعالاته، وهي مكون مهم في البناء الأدبي للخطابة لما لها من تأثير على أسماع الفئة التي تستهدفها الخطبة، حيث يتم من خلالها تجسيد المعنى وتوضيحه وتقديمه بالكيفية التي تضيف عليه جانباً من الخصوصية والتأثير.

إن ظهور مصطلح الصورة بدأ عند النقاد والبلاغيين لدى محاولاتهم الربط بين الرسم والشعر، والتقديم الحسي للأشياء والانفعالات والحقائق؛ فالجاحظ يُعدُّ من أوائل النقاد العرب الذين انتبهوا إلى هذه الصلة التي تربط الشعر بالتصوير الفني في مقولته النقدية: "الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس التصوير"⁽¹⁾، فقد ربط بين الشعر والرسم والنسيج. والصورة الفنية جزء من عملية الخلق الفني، وليست شكلاً من أشكال الزينة والزخرفة، فهي تضطلع بدور بارز في توضيح المعنى وتثبيته في ذهن المتلقي، حيث تقوم الصورة الفنيّة على التشبيه والاستعارة والمجاز والكنایات وغيرها من الألوان البلاغية، وهذا يشير إلى أن الصورة تدل على كل ما له صلة بالتعبير الحسيّ، وتُطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات.

التشبيه

يُعدُّ التشبيه من الوسائل الفنية التي وُجِدَت في الأدب العربي منذ القدم، ويُعرَفُ في اللغة على أنه: "التمثيل، وأشبه الشيء الشيء: ماثلُهُ"⁽²⁾، وفي الاصطلاح: "إلحاق شيء بذي وصف، أن تثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به"، والتشبيه هو: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"⁽³⁾. ومن خلال ما سبق نجد أن التشبيه هو وسيلة لتوضيح الصفة المراد إثباتها للموصوف، كأن نقول: زيد كالأسد، حيث تريد إثبات الشجاعة له.

(1) الجاحظ، (1948). الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، مصطفى الحلبي، القاهرة، ص 121.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة شبه.

(3) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، (1984). البرهان في علوم القرآن، ط(3)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ص 414.

استخدم خطباء العصر الأموي التشبيه، ومن النماذج الخطابية للخلفاء الأمويين ما قاله معاوية بن أبي سفيان: "أما بعد، أيها الناس، إنا قدمنا عليكم، وإنما قدمنا على صديق مستبشر، أو على عدو مستتر، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون، فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ"⁽¹⁾، حيث قام معاوية بن أبي سفيان بتقسيم الناس الذين أُقبل على خلافتهم إلى نوعين، الأول هو الصديق، وقد شبهه بالمستبشر، وهنا يقصد مَنْ فرح واستبشر بولاية الأمويين، أما القسم الثاني فهو العدو المستتر، وهنا دلالة على الوضع القائم عند تولي معاوية الخلافة، إذ إن التنافس السياسي كان في بدايته، وكان يعلم أن هناك كثيرين ممن لا يرغبون بتولي الأمويين للخلافة، وهذه حقيقة تجسدت في الأحداث التي تلت هذه الخطبة من عداء وتفرقة بين المسلمين.

وخطبَ عبد الملك بن مروان في مكة، حيث قال: "إني والله ما أنا بالخليفة المُستضعف يعني عثمان، ولا بالخليفة المُدَاهِن يعني معاوية، ولا بالخليفة المأفون يعني يزيد"⁽²⁾، وقد جاء التشبيه هنا محاولة من الخليفة عبد الملك بن مروان لنفي الصفات التي اتصف بها من سبقه من الخلفاء وهم عثمان ومعاوية ويزيد، حيث نفى عن نفسه صفة الاستضعاف، حيث إن المشبه هو عبد الملك، ووجه الشبه هو الاستضعاف، والمشبه به هو عثمان بن عفان، وهذا تشبيه استعاري فالاستعارة ما هي إلا تشبيه حذف أحد طرفيه، كما نفى عن نفسه صفة المداهنة، وهو ما نسبه لمعاوية بن أبي سفيان (المشبه به)، وكذلك في صفة المأفون، التي وصف بها يزيد، واستخدم التشبيه هنا لنفي الضعف والتساهل مع الرعية الذي كان يتبعه من سبقه من الخلفاء الذين ذكرهم.

كما خطب زياد بن أبيه في رده على معاوية بن أبي سفيان فقال: "أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، ارجعوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان، وفكرت فيهم، فوجدتهم كالأضاحي، في كل عيد يذبحون"⁽³⁾، وهنا شبه زياد الناس بالخراف التي تذبح صبيحة عيد الأضحى، وهو يخبر الناس من خلال هذا التشبيه بأن الفتنة التي حدثت حصدت كثيراً من الأرواح في وقتي الجمل وصفين، حيث أكمل خطبته قائلاً: "ولقد أفنى هذان اليومان يوم الجمل وصفين ما يُنَيَّف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالب حق".

(1) الأندلسي، ابن عبد ربه، مرجع سابق، ج4، ص171.

(2) الجاحظ، مرجع سابق، ج2، ص168.

(3) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج2، ص268.

الاستعارة

تُعدُّ الاستعارة إحدى أهم الفنون البلاغية الخطابية، وركناً مهماً من أركان التعبير عن المشاعر وما تجيش به النفس من تعابير ومعان يريد الخطيب إيصالها إلى المستمع؛ فهي تعمل على تعميق التصوير وتدل على براعة الكاتب؛ لأنَّها عنصر رئيس لا يستغني عنه الخطيب، ويُقصد بها: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي"⁽¹⁾. وعُرِّفت الاستعارة على أنها: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"⁽²⁾. وتعمل الاستعارة على شرح المعنى وإيانتته أو تأكيده والمبالغة فيه. ويساعد استخدام الاستعارة واعتمادها على التشخيص أو التجسيم على إظهار جمال التصوير وبراعته، وإبراز قدرة الخطيب على تطوير اللغة، فهي "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدداً من الدرر، وتجنّي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر"⁽³⁾، فالاستعارة من أوائل فنون التعبير الجميلة في اللغة العربية، وقد استخدمها الخطباء في العصور المختلفة بوجه عام وفي العصر الأموي بوجه خاص، بما يخدم الصورة الفنية التي يريدون إظهارها وتعميق معنى كلماتها ومحتواها الفكري والمعنوي.

وتُعرَّف الاستعارة في معجم مصطلحات الأدب بأنها "مجاز بلاغي فيه انتقال معنى مجرد إلى تعبير مجسّد عن طريق أن يستبدل بالمجرد التعبير المجسّد من غير التجاء إلى أدوات التشبيه أو المقارنة، وتتميز الاستعارة بأن عناصر التشبيه ليست موجودة في التعبير، ولكن يجب استخلاصها بواسطة الذهن"⁽⁴⁾.

تظهر الاستعارة واضحة في كثير من خطب الأمويين، ومن أهمّها تلك الخطب خطبة الحجاج عند توليه زمام الأمور في الكوفة، حيث كان الحجاج من أشهر الخطباء الذين تميزوا بأسلوب خاص في خطبهم، فهو يختار الألفاظ الغربية المججلة التي تملأ الفم وتترك رنة قوية في أذن المستمع، وهذه الألفاظ هي (جلا، طلاع، قطافها، يققع، فعجم، واضطجعتم). وأما التراكيب التي تنتظم فيها هذه الألفاظ فهي تراكيب قوية متينة حسنة النظام، كقوله: "إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها"، حيث احتوى النص على مكانين للاستعارة الفنية البارعة؛ أولاها، عندما شبه من أراد استهدافهم في خطبته وترهيبهم وتخويفهم

(1) الهاشمي، أحمد، (د.ت). جواهر البلاغة، دار أحياء التراث، ط(12)، بيروت، لبنان، ص303.
(2) العسكري، أبو هلال، (1984). الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط(2)، بيروت، لبنان، ص295.

(3) الجرجاني، عبد القاهر، (1996). أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الإسكندراني، ط(1)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص41.

(4) معجم مصطلحات الأدب: مادة (عار).

بالرؤوس، وشبه هذه الرؤوس في المرة الثانية بالزروع، وجعلها كالثمار عندما ينبت ويصبح جاهزاً للحصاد، أو الثمار التي تنضج وتصبح جاهزة للقطف، وهي استعارة مكنية. وأما قوة التراكيب ومثانتها فتظهر في خلوها من الحشو، فالتركيب ممتلئ بالألفاظ القوية المنظمة، كما في قوله: (فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة) وهو يشتمل على جملتين لا نجد فيهما كلمة نابية عن مكانها أو غير مؤتلفة مع الكلمات الأخرى.

والحجاج عربي فصيح يخاطب عرباً فصحاء؛ لذلك فإنه لا يُظهر المعنى ويكشفه بسرعة، وإنما يورد بعض العبارات التي تحتاج إلى تأنُّ في فهمها؛ فهو يعتمد على الاستعارة لبعض الكلمات التي عمَدَ من خلال إدراجها في خطبته إلى ترهيب مَنْ يسمعه. ولعل الهدف الأساسي من الخطبة هو إظهار قوته وبطشه لأهل الكوفة في حال استمرت الفتنة التي كانت قبله على ما هي عليه، لذلك جاء قوله: "فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة"، كما جاء قوله: "إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها" وقوله: "ولقد فررت عن ذكاء". وقد أسهم الخيال في صنع أسلوب خلّاب يبرز أحياناً في صورة استعارة، وأحياناً في صورة تشبيه، والأسلوب هنا بعيد عن التكلف والغموض، فهو أسلوب واضح وملائم للحالة التي يعيشها العراق في ذلك الوقت، فقد كان كلامه في منتهى الجلاء والمصارحة والوضوح، عندما قال "وحان قطافها" وقوله "وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي"، وكذلك قوله "والله لأحزمنكم حزم السلمة". وبما أن المقام مقام حزم فقد استخدم الحجاج المؤكّدات بكثرة كما في قوله: "إني لأرى رؤوساً"، و "إني لصاحبها" و "إني والله"، و "وإن أمير المؤمنين"، وكذلك قوله: "قد أينعت" "ولقد فررت". وفي قوله: "والله لأحزمنكم حزم السلمة" فنلاحظ أنه استخدم (إنّ) و (قد) و (القسم). إنّ تتبعنا لألفاظ هذا النص وتراكيبه وخياله يُحيلنا إلى حقيقة أن الخطيب قد نهج نهجاً تتوافر فيه كل مقومات الأسلوب المتين القوي⁽¹⁾.

وقد قام طارق بن زياد خطيباً في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه، ثم قال: "أيها الناس، أين المقرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبرُ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مأدبة اللّثام...."⁽²⁾، حيث شبه طارق بن زياد في خطبته من معه بالأيتام عندما قال: "واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مأدبة اللّثام"، وشبه أرض الأندلس وقدام جيش الأعداء بمأدبة اللّثام، وجاءت الاستعارة هنا دالة على الدُّل والهوان الذي سيلقاه المسلمون في حال تهاونهم في لقاء عدوهم، ففي الاستعارة حثُّ على القتال من جهة، وتحذير من عاقبة الاستهانة أو الضعف أمام العدو.

(1) الأندلسي، ابن عبد ربه، مرجع سابق، ج4، ص208.

(2) صفوت، أحمد، مرجع سابق، ج1، ص314.

المجاز

يُعرّف المجاز لغة بأنه مأخوذ من جاز التي أصلها جَوَزَ، يجوز، جَوَزًا، وجوازًا. يقال: جاز المكان، إذا سار فيه، وأجازه: قطعه، يقال: جاز البحر: إذا سلكه وسار فيه حتى قطعه وتعدّاه، ويقال: أجاز الشيء؛ أي: أنفذه، ومنه: إجازة العقد: إذا جُعِلَ جائزًا نافذًا ماضيًا على الصحة، وجاوزت الشيء وتجاوزته: تعدّيته، وتجاوزت عن الشيء: عفوت عنه وصفحته، قال ابن فارس: (جوز) الجيم والواو والزاي أصلان: أحدهما: قطع الشيء، والآخر: وسط الشيء؛ فأما الوسط، فجَوَزَ كل شيء وسطه، والأصل الآخر: جُزّت الموضوع، سِرّت فيه، وأجزته: خَلَفْتَه وقطعته، وأجزته: أنفذته⁽¹⁾، فهو نقل اللفظ من حقيقته إلى كلمة أخرى؛ لأنهم جازوا به موضعه الحقيقيّ الأول إلى موضعه الثاني، فكأنه مسلك ووسيلة الانتقال من المعنى الحقيقيّ إلى الخيالي، "فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول، فهي مجاز"، أما في اصطلاح الأصوليين: فقد عرّف المجاز بأنه: (اسم لما أريد به غير ما وُضِعَ له لمناسبة بينهما)⁽²⁾، أن تكون هناك علاقة بين اللفظ الموضوع له والمستعمل فيه، فيخرج من المجاز ما لا مناسبة بينهما.

احتوى الأدب الأموي على كثير من صور متعددة للمجاز البلاغي، حيث أدرج هنا بعضاً من الخطب الأموية التي اشتملت على صور المجاز؛ فلقد سعد قطريُّ بن الفجاءة منبر الأزارقة، ثم قال: "مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطناً إلا منحته من ضررائها ظهراً، ولم تطله غبية رخاء إلا هطلت عليه مُزنة بلاء، وحرى إذا أضحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متكررة، وإن جانب منها اعذوب واحلولى أمرّ عليه منها جانب وأوبى"⁽³⁾، ونلاحظ من النص المقتبس من خطبة قطريُّ بن الفجاءة أنه استخدم بعض الكلمات مجازاً لتدل على معنى مخالف للمعنى الحقيقي للكلمة، فالبطن للدواب، وللإنسان أيضاً، لكن الخطيب استخدمه في الخطبة في وصف إقبال الدنيا على الناس في حال سرائهم، واستخدم ظهراً والظهر هو أيضاً للدواب لوصف الجفاء الذي تبديه الدنيا للناس في حال وقوعه في الضراء، ولعل تشبيه الدنيا -هنا- بالإنسان واضح؛ مقصداً ومعنى، حيث يتطبّع الإنسان في الإقبال على من هم في خير، وفي الابتعاد عن أهل المصائب، واستخدم كلمتي "منتصرة"، خاذلة متكررة، والانتصار للإنسان أو خذلانه هو أيضاً من صفات البشر

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ج2/ص50)، المصباح المنير، الفيومي (ج1/ص143)، الصحاح،

الجوهرى (ج4/ص146)، القاموس المحيط، الفيروزآبادي (ج3/ص221).

(2) الجرجاني، مرجع سابق، ص325.

(3) الجاحظ، مرجع سابق، ج2، ص87.

ولا تطلق إلا عليهم، لكن الخطيب هنا وصف حال الدنيا المتقلب فهي تصبح واقفة معه، تسانده وترفع عنه ثقله، وتسمي خاذلة له متتكرة لوجوده. وفي قول الخطيب: "جانب منها اعذوب واحلولى"، و"أمرّ عليه جانب منها وأوبى" أيضاً الحلو والمر هما من صفات الطعام، ولا يستخدمان إلا لوصف طعم شيء تذوقه الإنسان. ولعل الخطيب قصد ما يجده الإنسان من مصائب الدنيا ومحاسنها بالتذوق، فهي حلوة في جانب، وفي جانبها الآخر مُرّة. ونفهم مما سبق أنّ قطريّ بن الفجاءة قصد بالطباق -الذي استخدم فيه كلمات مجازية- وصف الدنيا وجوانبها، وما يلقى الإنسان منها. وعلى الرغم من أنّ قطريّ بن الفجاءة من الخوارج، لكنّ خطبته هذه جاءت متطابقة مع اعتقادات جاءت متطابقة مع أهل السنة، وبعبارة كل البعد عن عقيدة الخوارج.

كما خطب سليمان بن عبد الملك بن مروان في ذمّ الدنيا قائلاً: "الحمد لله، ألا إنّ الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتفقر مثيراً، وتثري مفقراً، ميالة غرّارة، لعّابة بأهلها عباد الله"⁽¹⁾، ويظهر استخدام الدار لوصف الدنيا. والمعروف أنّ الدار هي البيت، كذلك المنزل عندما قال "منزل باطل"، وجاء هنا تشبيهه الدنيا بالمكان، كما أنّ من يضحك الباكي هو الإنسان، وكذلك من يبكي الضاحك، أو يُخيف الآمن، أو يؤمن الخائف، أو يتقر المثيري (الثري) أو يثري المفقّر، والكلمات من مثل: الميالة والغرارة واللعابة يغلب استعمالها في وصف البشر، لكنّه استخدمها هنا مجازاً للتحذير من الدنيا وما تُخبئ للناس في طياتها.

وقال أبو صخر الهذلي في رده على عبد الله بن الزبير: "إذن أجدهم سباطاً أكفهم، سمحة أنفسهم، بُدلاء لأموالهم، وهابين لمجتديهم، كريمة أعراقهم، شريفة أصولهم، زاكية فرووعهم، قريباً من رسول الله نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نسبوا بأذنان ولا وشائظ ولا أتباع، ولا هم في قريش كقفعة القاع، لهم السؤدد في الجاهلية، والملك في الإسلام...". والسباط والأكف التي استخدمها أبو صخر في خطبته من متعلقات النعم والخير، حيث يرتبطان دائماً، والكف هو سبب للطاء، وافتتح الخطبة بوصف عطاء الأمويين، وجاء النص متمامياً من خلال التدرج في التعبير، فبعد تقديم الصورة المجازية، تتدرج الصفات الحميدة واحدة بعد الأخرى، مشكّلة نموذجاً متحدداً مترابط العبارات والصور؛ وذلك باستخدام الألفاظ ذات الأوزان المتقاربة والمعاني المترابطة.

(1) صفوت، أحمد زكي، مرجع سابق، ج2، ص200.

الكنائيات بأنواعها

الكناية في اللغة مصدر كُنَيْتُ بكذا عن كذا: إذا تركت التصريح به. والكناية في اصطلاح أهل البلاغة: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى، وهي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي إليه ويجعله دليلاً عليه. وتعدّ الكناية من أساليب البيان التي لا يقوى عليها إلا كل بليغ متمرس بفن القول، وما من شك في أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض والتلميح أوقع في النفس من التصريح، وإذا كان للكناية مزية على التصريح فليست تلك المزية في المعنى المكتنى عنه، وإنما هي في إثبات ذلك المعنى للذي ثبت له، فمعنى طول القامة وكثرة القرى مثلاً لا يتغير بالكناية عنهما بطول النجاد وكثرة رماد القدر، وإنما يتغير بإثبات شاهده ودليله، وما هو علم على وجوده، وذلك يكون أثبت من إثبات المعنى بنفسه، فالمبالغة التي تولدها الكناية وتضفي بها على المعنى حسناً وبهاء هي في الإثبات دون المثبت، أو في إعطاء الحقيقة مصحوبة بدليلها، وعرض القضية وفي طيها برهانها⁽¹⁾.

استعمل الخطباء الأمويون الكناية في خطبهم، ومن النماذج التي تظهر فيها الكناية بارزة وجلية ما قاله المختار بن أبي عبيد التقي: "إني قد جننكم من قبل ولي الأمر، ومعدن الفضل، ووصي الوصي، والإمام المهدي - بأمر فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء، وتمام النعماء، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه إنما هو عشمه من العشم، وحشف بال، ليس بذئ تجربة للأمر، ولا له علم بالحروب"⁽²⁾، فاستعمل الكلمات: "ولي الأمر" و"معدن الفضل"، و"وصي الوصي"، هي كناية عن القيادة، وكذلك عشمه من العشم، وحشف بال، هي كناية عن قلة الخبرة في إدارة الأمر.

وكذلك وردت الكنائيات في خطبة لطارق بن زياد، فقال: "واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقوائه موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم أمراً ذهب ریحكم"⁽³⁾، ففي قوله "أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام" كناية عن الدلة والضعف، وفي قوله "ذهب ریحكم"، كناية عن الضعف والتفرق.

وقد قدم الحجاج أميراً على العراق، ثم دخل المسجد معممًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفاً، متكبباً قوساً يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث فترة من الوقت لا يتكلم وهم لا يعرفونه، فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح الله بني أمية التي استعملت مثل هذا العيي على العراق، حتى قال عمر بن ضامى الرجمي: ألا أحصبه لكم؟ حيث إن قوله "ألا أحصبه لكم؟" هو كناية عن القول القاسي.

(1) عتيق، عبدالعزيز، (1982). علم البيان، ج1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ،

ص226

(2) صفوت، أحمد مرجع سابق، ج2، ص75.

(3) المرجع نفسه، ص314.

خاتمة

تناولت في دراستي مراحل تطور الخطابة في العصر الأموي، وبيّنت أثر التنافس السياسي في إنضاج مظاهر ذلك التطور للخطابة بجميع أنواعها. وكانت دراستي موزعة على النحو الآتي: فصل تمهيدي بيّنت فيه تعريف الخطابة ومراحل تطورها في الجاهلية وصدر الإسلام وماهيّة الخطابة لغة واصطلاحاً ودوراً، وأشرت كذلك إلى أشكال الخطابة ومعمارها الفني.

وتناولت في الفصل الأول ملامح العصر الأموي، من خلال تطوّر الحياة الفكرية والعلمية وصولاً للأحداث السياسية والاجتماعية التي أنتجت بدورها الفرق الدينية والكلامية المتصارعة؛ حيث تمخّض عن ذلك ظهور أنواع متعددة للخطابة تم الوقوف عندها بشيء من التحليل، من خلال عرض نماذج للخطابة السياسية والحربية، وكذلك الدينية والاجتماعية، وركّزت في هذا الفصل على التسلسل التاريخي، وأثبتت الدراسة أن خطب العصر الأموي تحوي رصيذا لغويا سواء على المستوى المعجمي، أو المستوى الدلالي.

وجاء الفصل الثاني تحليلاً لأساليب الخطباء في العصر الأموي، من خلفاء وولادة وصولاً إلى الخطب المذهبية وأساليبها كخطب الخوارج والشيعية. وكان الفصل الثالث مخصصاً للتعريج على ظاهرة التناس بأشكاله التاريخية والدينية والأدبية؛ ذلك أن المدقق في التناس يستطيع من خلاله أن يحدّد التوجه الديني والسياسي لدى خطباء ذلك العصر، وهذا يثبت بدوره ضرورة دراسة خطب عدد من الخلفاء والولادة المغمورين بدلاً من دراسة خطب الخلفاء والولادة البارزين بصورة مستمرة من الباحثين.

وأما الفصلان الرابع والخامس، فقد مثلاً الجانب التطبيقي والعملي؛ حيث بيّنت فيهما كيف كان خطباء العصر الأموي يوظّفون الأدوات البديعية لخدمة الموضوع وإيصال الرسالة إلى المتلقي بطريقة محكمة متقنة، فجّروا من خلالها اللغة بأساليبهم البلاغية، فكان المعيار الرئيس في هذا الفصل: (النصوص الخطابية) فسعت الدراسة إلى بيان كثير من السمات البديعية في الخطابة الأموية كالسجع والتضاد والتكرار والتورية والازدواج، فضلاً عن أدوات الصورة الفنية كالتشبيه والاستعارة والتضاد والمجاز والكنيات بأنواعها، كما اتبعتُ الفصول الخمسة بخاتمة تلخّص أهم نتائج كل فصل تمّ تناوله، وتثبتت الدراسة أن هذه الفنون البلاغية والبديعية بأشكالها المتعددة جدية بالدراسة نظرياً خاصة في فن الخطابة، كما تمت دراستها شعرياً في كثير من الأبحاث والرسائل والدراسات؛ لأن الخطب الأموية المتطورة تكاد لا تخلو من هذه الفنون.

أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها الباحث

- يوصي الباحث بتطوير الخطابة في عصرنا المشابه للعصر الأموي، نظراً لأن الخطابة الآن في تراجع وتقهقر مستمرين، وما أحوجنا إلى الاقتداء بمهارات خطباء العصر الأموي.
- يوصي الباحث بتدريب وإعداد خطباء أكفاء في عصرنا الذي يشهد تنافساً سياسياً كالعصر الأموي من حيث كثرة الأحزاب والفرق السياسية؛ التي تسعى لاستمالة الناس وإقناعهم بأفكارها.
- يوصي الباحث بالرجوع إلى نصوص الخطب في العصر الأموي، وتمثل ما فيها من بناء ومعمار وبلاغة وفصاحة وبيان.
- يوصي الباحث بضرورة دراسة خطب عدد من القادة والولاة غير المشهورين في العصر الأموي؛ ذلك أن كثيراً من الدراسات تناولت الخطباء البارزين، وقتلتهم بحثاً، في حين تجاهلت خطباً لبعض القادة والولاة المغمورين.
- أثبتت الدراسة بأن خطب العصر الأموي تحوي رصيذا لغويا سواء على المستوى المعجمي، أو على المستوى الدلالي، وهذا بدوره يفتح المجال أمام الباحثين والدارسين كي ينهلوا من تلك الثروة اللغوية الهائلة.
- أثبتت الدراسة أن الفنون البلاغية البديعية بأشكالها المتعددة تكاد لا تخلو منها خطبة من خطب العصر الأموي لذا فهي جديرة بالدراسة نثرياً، كما تمت دراستها شعريا في كثير من الدراسات والأبحاث.
- يوصي الباحث بضرورة دراسة خطب الوفادات من النساء المغمورات في العصر الأموي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر:

- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح، (1986). **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الأثير، ضياء الدين، (د.ت). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة - القاهرة.
- ابن الأثير، عز الدين أبا الحسن، (1979). **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، المجلد(2).
- أرسطو، طاليس،(د.ت). **فن الخطابة**، وكالة المطبوعات، الكويت.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، (1963). **كتاب الأغاني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ابن عبد ربه، أبو عمرو أحمد بن محمد الأندلسي، (1962). **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم البياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- البستاني، بطرس، (د.ت). **محيط المحيط**، مكتبة لبنان، بيروت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (د.ت). **"البيان والتبيين"**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، بيروت.
- الجاحظ،(1948). **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، ومصطفى الحلبي، القاهرة.
- الجرجاني، عبدالقاهر،(1996). **أسرار البلاغة في علم البيان**، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الحاتمي، أبو علي، (1979). **حلية المحاضرة في صناعة الشعر**، تحقيق جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

- الحصري، أبو اسحق إبراهيم بن علي، (2001). **زهر الآداب وثمر الألباب**، مفصل بقلم الدكتور زكي مبارك، دار الجيل، بيروت.
- الخُزاعي، دُعبل بن علي، (1983). **شعر دُعبل**، تحقيق عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، (1984). **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
- الزمخشري، (د.ت). **أساس البلاغة**، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- العسكري، أبو هلال، (1984): **الصناعتين**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الطبري، محمد بن جرير، (1987). **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، القاهرة.
- الطيبي، شرف الدين الحسين بن محمد بن عبدالله، (1986). **التبيان والتبيين**، تحقيق توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، دار ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت.
- الفارابي، (1986). **إحصاء العلوم**، تعليق وتنظيم أمين عثمان، مصر.
- الفيروز آبادي، أبو طاهر، الإمام مجد الدين، (د.ت). **القاموس المحيط**، مطبعة بولاق، مصر.
- قدامة بن جعفر بن قدامة، أبو الفرج البغدادي، (1982). **نقد النثر**، تحقيق طه حسين، وعبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (1971). **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت (747هـ)، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر.
- عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، (2003). **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد،(1997). **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة.
- المدني، علي صدر الدين معصوم،(1986). **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تحقيق شاکر هادي شکر، مكتبة العراق، العراق.
- المروزي، أبو عبد الله نعيم بن حماد الخزاعي، (1992). **كتاب الفتن**، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد القاهرة.
- المقدسي، محمد بن مفلح، (1999). **الأدب الشرعية والمنح المرعية**، عالم الكتب، القاهرة.
- المقرئ، أحمد بن محمد، (1988). **نقح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، (2004). **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- ابن منظور، (1990). **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
- النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، (1998). **المستدرک في علم الصحیحین**، دار المعرفة، بيروت.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، دار الكتب العلمية، بيروت.

المراجع:

- الأحمد، عبدالرحمن، (2004). **البيان الزاهر إلى فرسان المنابر**، مركز السعيد، حمص.
- أمين، أحمد،(2008). **فجر الإسلام**، يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية"، شركة نوابغ الفكر للنشر، القاهرة.
- بسيوني، عبدالفتاح فيود، (2010). **من بلاغة النظم القرآني**، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة.
- بُشبندر، ديفيد، (1996). **نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر**، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- البعلبكي، منير وآخرون، (1999). المصور في التاريخ: حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى، دار العلم للملايين، بيروت.
- الحوفي، أحمد محمد، (1972). "فن الخطابة"، (د.ت)، ط4، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.
- الخفاجي، عبدالمنعم، (1990). الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت.
- الزعبي، أحمد، (2000). "التناص نظرياً وتطبيقياً"، مؤسسة عمان للنشر، الأردن.
- أبو زهرة، الإمام محمد، (1934). الخطابة أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة.
- شاکر، محمود، (2000). التاريخ الإسلامي، دار المكتب الإسلامي للنشر، القاهرة.
- الشايب، أحمد، (1991). الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- صفوت، أحمد زكي (1974). جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت.
- ضيف، شوقي، (1960). تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة.
- الطباع، عمر فاروق، (1991). مواقف الأدب الأموي، دار القلم، بيروت.
- العاكوب، عيسى، (1988). نظرية الأدب في القرن العشرين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- عبد الخالق، غسان، (2014)، النقد العربي القديم نصوص نقدية مختارة (قراءة تطبيقية مساندة، جامعة فيلادلفيا، عمان.
- عبد الرحمن، حكمت نجيب، (1977). دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل، الموصل.
- عبداللطيف، عبدالشافى محمد، (2008). العالم الإسلامي في العصر الأموي 41هـ—
132هـ: دراسة سياسية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة.

- عبدالمطلب، محمد، (1997). أصول البلاغة العربية، بيروت، مكتبة لبنان.
- عتيق، عبدالعزيز، (1982). علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- العش، يوسف، (1985). الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، دار الفكر، دمشق.
- عيسى، عبدالرحمن، (1995). أدب الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية، دار الإيمان، بيروت.
- فروخ، عمر، (1970). تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت.
- الفلاح، قحطان صالح، (2005). في النثر العباسي، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سورية.
- فياض، نقولا: (1930). الخطابة، دار الهلال، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية.
- قباني، محمد، (2006). الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط، دار وحي القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- قطب، سيد، (1990). النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة.
- ليديا، وعد الله، (2005). التناس المعرفي في شعر عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- محفوظ، الشيخ علي، (1979). فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الإعتصام للنشر والتوزيع، القاهرة.
- مطلوب، أحمد، (1975). فنون بلاغية البيان والبديع، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت.
- منصور، حمدي محمود، (2016). نصوص من النثر في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار الفكر، عمان، الأردن.
- موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، (1996). العصر الأموي، دار سفير للنشر، القاهرة.
- ناهم، أحمد، (2004). التناس في شعر الرواد، بغداد.
- النجار، محمد الطيب، (1991). الدولة الأموية في المشرق، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة.
- النص، إحسان، (1963). الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، القاهرة.
- الهاشمي، أحمد، (د.ت). جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع، دار أحياء التراث، بيروت.

الرسائل الجامعية السابقة:

- بلخيري، فطيمة، (2015). **البيان في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي**، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة.
 - الجزائر، محمد فكري، (1995). **لسانيات الاختلاف**، أطروحة دكتوراة، سلسلة "كتابات نقدية"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
 - خالد، عادل سلامة خلف، (2002). **الخطابة العربية في العصر الأموي: دراسة نصية أسلوبية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، إربد، الأردن.
 - القرني، سعيد، (1434). **تقاليد التواصل في أدب الخطابة العربية في القرن الأول الهجري**، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.
 - مقداد، عبد الكريم رباح، (2013). **فقه الخطاب الإسلامي وقضايا المعاصرة**، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة.
 - المصنف، عبد الرحمن أحمد حفظ الدين، (2000). **الحركة العلمية في العصر الأموي في المشرق الإسلامي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صنعاء، اليمن.
- المجلات والدوريات:**

- ريكورت، بول، (1998). **النص والتأويل**، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد (3).
- قاسم، نادر، (2005). **التناص القرآني والإنجيلي والتوراتي في شعر أمل دنقل**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عمان.
- اللهبي، حسين عبدالعالي، (2008). **الخطابة العربية في العصر العباسي الأول: دراسة موضوعية فنيّة**، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (4،3)، المجلد (7)، جامعة الكوفة، العراق.
- وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، (2015). **"إعداد الخطبة: نصائح وإرشادات"**، منشور.

The Development of Oratory in the Light of the Political Rivalry in the Umayyad Era

By

Mohammad Ahmad Daine Al Khawaldeh

Supervisor

Dr. Ghassan Ismail Abdel Khaleq

Abstract

The study addressed the stages of the development of oratory in the Umayyad Era while examining the role of the political rivalry in this aspect.

The study was divided into five chapters preceded by a preface defining the concept of oratory, its development from Al Jaheleyya to the early Islam, the nature of oratory linguistically, theoretically and its role. The preface briefly reviewed the forms and structures of oratory in these eras.

As for the five main chapters, the first chapter addressed the main features of the Umayyad Era by focusing on the development of intellectual and scientific life, mainly with respect to the political and social events that produced the rivalry speech and religious doctrines, as this led to the emergence of various forms of oratory which were examined and analyzed by presenting different models of political, military, religious and social oratory.

The second chapter was dedicated to analyzing orators' methods in the Umayyad Era such as caliphs, magistrates, reaching to the doctrinal speeches and their methods such as Shiites and Kharijites. The third chapter addressed the concept of contextualization in its historical, religious and literature forms as the examiner of contextualization can identify the religious and political position of orators at that era.

The fourth and fifth chapters of the study represented the applied and practical domains as it was found that Umayyad Era orators employed their and rhetorical language skills to serve the subject being presented, to communicate the message to the receiver in a robust approach. They made a revolution in language with their methods as the primary criterion in this chapter was the text before everything. The study sought then to identify the most significant language figures of speech such as assonance, paradox, repetition, in addition to using art image tools such as analogy, metaphor, figures of speech, trope, duplicity and forms of metonymy.

The most important feature of the current study is that it strongly related to decoding some significant aspects of the topic being addressed so as the reader can make reasonable judgments. The texts being examined were taken from their original source and thus, there was no additions, omissions or distortions despite the fact that although the texts were taken from the Umayyad Era, some scholars opinion were also examined as they provided critics to them.

Key words: Oratory Development, Political Rivalry, Umayyad Era.